كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ...

(قرآن كريم)

أسهال الوان

جماليات

نشرة فنيّة تهكميّة هادفة

تصدر شهريًا أو حسب مقتضى الحال

يحررها:

مفلس بن كيان العصموصي

الأعداد من رقم ٦ إلى رقم ١٠ - ١٩٩٨ لبنان - بيروت

إصدار خاص

أُعِدَّ هذا الكتيّب لمواكبة المعرض الفردي الثاني للفنان التشكيلي عبد الحميد بعلبكي

بين ٢٧ شباط و ٩ نيسان ١٩٩٨

خواطر حول معرضي الفردي الثاني ... "هالي"*

• سألني الصديق الخطّاط علي عاصي، وكنا نتداول في موضوع الإعداد لهذا المعرض: ما الغاية من معرضك هذا ما دمتَ لا تنوي البيع، وفيه ما فيه من الكلفة المادية...؟!

قلت: أفعل كما كان يفعل جحا... كان يشتري البيضة بعشرة فلوس، ويبيعها بتسعة.

وحين سُئل لماذا يبيع هكذا بخسارة قال : لكي لا يزعلوا الزبائن !

وضحكنا معاً ... لكن هذا ليس جواباً شافياً على مثل هذا السؤال مع من هم غير علي عاصي ...

علي عاصي فنّان في الخط، لكنه فنّان أيضاً في استيعاب الفكاهة؛ يضحك لها بصوت خفيض كأنه قهقهة الدَّوْرَق وأنت تديره إلى فمك!

بسيط في لغته كمعمّري القرى، وصريح في إبداء رأيه كالمَعْمرجي الذي لا تسمح له مهنته بالمداورة أو التساهل. وهو ، على كل حال، يرى فيَّ مثل هذا الذي أراه فيه !

ولا بدَّ لي يوماً من الكتابة عنه بتوسُّع لأنه من طراز خاص من البشر بطيبته، وحنانه، وأريحيته، وصدقه، وتقديره الصَّائب لمعادن الرجال ممن يخالطهم. وأكيد أنه لا يعرف كيف يُسيء إلى أحد... وهذا برأيي من أرفع مكارم الرجال !

• بالعودة الى موضوع المعرض أقول أن الإجابة المفيدة تقتضيني ، بحسب التعبير الشعبي: حكايا بكايا وشرحاً يطول ....

في نيسان القادم يكون قد مرَّ على معرضي الأول الذي لم يعدْ يتيماً الآن خمسة عشر سنة بالتَّمام .. وقد صار يُخجلني اليوم ، حين ينعتني بعضهم، كتابةً أو مشافهةً، وصدقاً أو مراءآةً ، بالفنان الكبير أنني لست كبيراً حقاً ، لأنني أعلم جيداً أن مثل هذا التعبير هو أشبه بتهمةٍ منه بإطراء ، ولا تسقط هذه التّهمة عن كاهل من تُطلق عليه إلاّ إذا حقّق في ميدان الفن، كما هو الشأن في كل الأمور الإبداعية ، توازناً ملحوظاً بين الكمّ والنوع في عمله .

وأعلم جيداً ايضاً أن الكمّ ، من خلال تجويد العمل ، يصل بالعمل الى حالة النَّوع ...

وأنا وإن كنت من شيوخ "المعمرجيّة" ، بكل تواضع ، إلا أنني بالفعل مقلٌّ نسبياً !

• دفعاً للإلتباس أنا لا أقصد أن أخدم بكلامي هنا طبقةً من الفنّانين ممن يشبهون الطّراشين : أعطونا بويا وقماشاً ... وخذوا ما يُدهش العالم !

أنا متشدّد في نظرتي إلى الفن والفنانين ، وأتمثّل دائماً بالآية الكريمة" فأما الزّبد فيذهب جفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض." وعليه فإن قصدي بالكلام يتّجه تحديداً الى الفنان العاملِ، النشيطِ، المجدِّ، الهادفِ في عمله إلى السَّوية الفنيَّه العالية . وأمثال هذا الفنان هم في الواقع قليلون في هذا الزمان ، وكلّ زمان كان أو سيكون !

• بعض همشرياتي الغيارى يرشقونني منذ سنوات بتهمة أنني مقلٌّ ، وهم يعنون بذلك أنني على شاكلة رسّامي عطلة نهاية الاسبوع. وبعض من يجرؤ منهم عليَّ بحكم "المونة" يتّهمني بالكسل ، ويكاد يقول لي :"إفتح إيدك يا كسلان...". وثَّمة من ينعي عليَّ ، خارج نطاق هؤلاء ، بخبث، أنني أصبحت بئراً جافاً ... أو أنني أفتّش ولا أجد... والطريف في الأمر هو أنني أنا الذي أطلقت علي نفسي ، لأول مرة ، صفة مقلّ. وهذا يذكرني بمرحوم هناك إسمه شمعون بن فلان ... بن فلان ... ذكر في ختام مخطوطة كرشونية محفوظة لديَّ أنه نسخها بخط يده الفانية هو الخاطي الحقير ، العظيم الذنوب، الدُّون، الذي لا يستحقُّ نعمة الحياة حتى ولو بصورة حشرة ..!!!

لَيْسَ .. كما يقولون باللغة الحلاّويّة، لحسم الحديث أو الإنتقال من موضوع إلى موضوع المهم أنني داخل نفسي لست ناقماً على نفسي ، وإن كنت لستُ راضياً عنها ، ولن أرضى عنها ابداً فلديَّ معاذيري ، وأنا مقتنع بها حتى ولم لم تُقنع همشرياتي !!

• منذ شهور اهتديت الى تعبير أجده مؤثراً في شرح الحالة من بعض وجوهها ، وهو أن العصفور الذي يفرُّ من غصن إلى غصن كان أكثر استقراراً مني في فترة الحرب ، أبعد اللّه ذكرها. فقد هُجِّرتُ من مكانٍ الى مكانٍ سبعة عشر مرة . فكيف كان يمكن لي أن أُنتِج فناً في مثل هكذا حالة ؟!

في فجواتٍ من الزمن الملتهب ، أيام الحرب، . كنت أجد بين حين وآخر فسحة من الهدوء النسبي أستغلُّها في العمل . وقد تراكم لديَّ العشرات من اللوحات ، بعضها مكتمل، وبعضها بحاجة إلى مراجعة . لكنها تفتقد فيما بينها الوحدة في الموضوع ، وربما قليلاً في الأسلوب، لتفاوت الأوقات التي رُسمت فيها . وقد شكاني إلى نفسي كثير من المعارف والأصدقاء بأنهم لا يعرفون أكثر أعمالي ، رغم أنني شاركت في عشرات المعارض الجماعية. ويبدو أن رؤية أعمال الفنان مجتمعة في معرض فردي هي أوثق حضوراً

العُدَيسة ... عشّ النسور

مناظر من الثمانينات

ودلالةً ، وأبقى في ذهن الجمهور ، من رؤيتها في معارض متفرقة . وقد بات من الحكمة، للخروج من إسار أعمالي تلك إلى مناخٍ جديد ، ووتيرةٍ في العمل مختلفة ، قطعُ ما بيني وبينها بعرضها مجتمعة كما يفعل كل فنان موزون ...

- حسناً .. اتُّخذ القرار بإقامة معرض فردي لهذه الأعمال. لكن المعرض يرتّب على صاحبه، في هذه الأيام الصعبة ، تكاليف ماديّة باهظة بين براويز ، وطباعة ، وضيافة ، الخ..ولا يُنتظر أن يدرّ عليّ معرضي هذا أي مردود مادي لأنني مستنكف عن البيع حالياً لأسباب أفضّل أن أحتفظ بها لنفسي وإن كنت لا أُخفي واحداً من أهمها وهو أن العرض اليوم ، بالشروط القائمة من قبل أكثر من جهة ، هو أشبه بعملية تسوّل من قبل الفنان . والفنان الذي يحترم نفسه ومهنته يُفضّل الإنكفاء من السُّوق بانتظار ظروف أفضل، ذات يوم ، تُؤمّن له جملة أشياء ، في رأسها الكرامة قبل أي شي آخر ...

وهكذا يمكن أن يُفهم تمثُّلي بجحا في أول هذا الحديث !

لا أريد أن أُلزم بموقفي هذا أياً من الزملاء، لا بالتَّصريح ولا بالتَّلميح. فلكل اعتباراته، وتقديراته، وحقه في النظر إلى الأمور ، ولكلٍ ظروفه التي من خلالها يتصرَّف بما يلائم وضعه الشخصي ....

- لعيون الطيّبين – وبالإذن من أصحاب شعار لعيونك – نقيم هذا المعرض ، ولا يهمنا لا التكاليف ، ولا التعب ، ولا من يشتري ، ولا من يبيع ... ورغم الإفلاس ، وصعوبة الأحوال ، فإنني على الموقف ذاته الذي حدّدته في آخر بيت من قصيدة "قُسِّمتْ بيننا الحظوظ..." المنشورة في العدد الماضي حيث أقول :

يا قوارين اقرعوا النَّاب غيظاً كبريائي عن مالكم أغناني

– وبتقديري أن الغني هو من رفع نفسه عما لا يليق بها ... حتى ولو في ظل الحاجة !

• إشارة الى المذنّب هالي الذي يظهر في أوقات متباعدة جداً !

"الكلب" و"ابن الكلب"... وآخر العنقود !

تلقينا من الأديب الباحث الصديق الأستاذ يوسف صقر الرسالة التالية ننشرها بحرفيتها لما تنطوي عليه من معلومات غنية...

أخي وصديقي مفلس بن كحيان العصموصي

تذكرتُ وأنا اقرأ العدد الأول من جريدتك "أشكال ألوان" جريدةً أخرى كانت تصدر في دمشق وتوزّع سرّاً في أوائل الخمسينات وتُدعى جريدة "الكلب". وهي عبارة عن نسخة واحدة كان يكتبها صدقي اسماعيل بخط يده ويرسم عنوانها، وينظم كل ما فيها شعراً ساخراً عميقاً لاذعاً يستعرض فيه كل ما يخطر على باله من أحوال شخصية وقومية وسياسية وفنية ... الخ.

وأذكر أنه جاء في صدر عددها الأول:

جريدة مختصّة بالشعر
تصدر مرتين في الشهر
إن خير القرّاء من لا يضوجُ
ذنب الكلب دائماً معووجُ

والملفت في هذه الجريدة – جريدة الكلب التي قلّما ضُربت على الآلة الكاتبة – أنها انتشرت في كلٍ من دمشق وحلب واللاذقية وبيروت وتداولها أصدقاء الشاعر من بلد الى بلد بحيث لا يدري أحد أين كانت تستقرّ أعدادها التي فُقِد معظمها مع الأسف الشديد، وبفقدان هذه الأعداد خسر أدبنا العربي، قديمُه وحديثُه جزءاً نفيساً من تراثه الفكري الأصيل.

والملفت أكثر أن هذه الجريدة أنجبت "جرواً" لها في حلب أطلق عليه الشاعر سليمان العيسى جريدة "ابن الكلب" وقد ضاعت كذلك معظم أعدادها. وكان شعارها:

خدمةً للقاريء العربي صدر ابن الكلب في حلبِ
ستراه في سياسته ... كأبيه عالـــي الأدبِ

وإذا عدنا قليلاً إلى الوراء، إلى الربُع الأخير من القرن التاسع عشر ومن ثم الى مطلع هذا القرن لوجدنا عشرات الصُحف والمجلات الهزلية السّاخرة في لبنان وسوريا ومصر بدءاً بجريدة "أبو نظارة" لمنشئها يعقوب صنّوع عام (١٨٧٧) في القاهرة؛ مروراً بصحف: "المنادمة" لحسن صبحي (١٨٩٦) و "التفريج" لمحمد عبد الجليل ومحمود سلامة. و"الكرباج" لعبد الله القدسي (١٨٨٦) و "أبو نظارة معضمه" لشكري أبو فريد (١٨٩٧) و"العفريت" لعزيز فهمي التجاربي (١٨٩٧) و "الفكاهة" لديمتري نقولا (١٨٩٨)

و"المسامرات" لابراهيم رمزي وعزت حلمي (١٩٠٣) و "الطرائف" لرشيد مصوبع (١٩٠٣) و "عفريت الحمارة" لعبد الرحمن الهندي (١٩٠٣) و "هاهاها" لمحمد مسعود وحافظ عوض (١٩٠٧) و"السبعة وذمتها" لعلي أبو زيد (١٩٠٧) و "الفكاهات العصرية" لعبد الله غزالة (١٩٠٨) و"الكشكول" لسليمان فوزي (١٩١٤) و"البغبغان" لكامل تادروس وسيد سعودي (١٩٢٤) و"ابن البلد" لسيد بيومي سلامة (١٩٢٩) و"البعكوكة" لمحمد التابعي (١٩٣٣) وغيرها. (جميع هذه الصحف صدرت في مصر). أما في سوريا فبلغ عدد الصحف الهزلية الانتقادية حوالي ٢٤ جريدة أبرزها "المضحك المبكي" لمنشئها حبيب كحالة عام ١٩٢٩ التي استطاعت أن تملأ فراغاً كبيراً وتعمّر طوال عهدي الإنتداب والإستقلال.

وفي لبنان لا بد أن نتوقّف أمام بعض الأسماء مثل جريدة عيواظ (التي أبى صاحبها أن يُعلن عن نفسه) و"الخرج"، و"حمارة بلدنا"، و"البغلة"، و "كراكوز"، و"الدّبور" التي صدرت ١٩٢٣ وهذه الأخيرة تربّعت على عرش الصّحافة الهزلية عندنا حتى الحرب العالمية الثانية ثم توقفت.

منذ ذلك الوقت أي منذ الأربعينات والسّاحة الأدبية في لبنان تخلو من صحيفة او مجلة متخصّصة في فنّ الضّحك والإضحاك علماً أن كل مجلة وصحيفة في أيامنا هذه لها رسّامها الكاريكاتوري الخاص بها. ومن رسّامينا المعروفين : خليل الأشقر، وديران، وبيار صادق، وملحم عماد وغيرهم.

عرضت لهذه المقدمة التاريخية التوثيقية لأطرح على أخي وزميلي في الإفلاس، مفلس بن كحيان العصموصي السؤال الآتي:

لماذا أصدرتَ "اشكال الوان" في أيامنا الرديئة هذه والعابسة في آن ؟ !

هل لأنك قررت أن تملأ الفراغ الذي حصل في الصّحافة الهزلية الساخرة في لبنان منذ الأربعينات إلى يومنا هذا.

وهل أعددت العدّة لذلك ، وكيف ؟

هل شعرت أن البسمة خُطفت منا وصرنا بحاجة إلى جرعة من الضّحك ؟

هل أدركت يا صديقي، وأنت على مشارف الستّين، وقد اشتعل رأسك شيباً (كما جاء في القرآن الكريم) أنك مقبل على متاعب جديدة ستخلّفها لك مهنة المتاعب، إن أنت عزمت على سلوك طريقها الوعر ! ...

انا اعرف توقك وعطشك الكياني الى التعبير الحرّ النّظيف، كما أعرف المعاناة التي تعيشها في داخلك لأنك لا تمارس هذا الحق ...

وإن قولك : "بتّ أشعر أنني ككثيرين غيري من المقموعين والمحرومين والجوعانين" هو قول فيه الكثير من الصدق والشفافية، وينسحب على كل من كانت به لوثة في الأدب والفكر والفن ...

منذ أكثر من ربع قرن وأنا أعرفك ، منذ ان التقينا صدفة ولأول مرة على الرصيف في ساحة الشهداء، بين تلال الكتب الصفراء والمجلات القديمة المرمية على الأرض، وكل واحد منا، راح يبحث فيها إما عن صورة فريدة أو وثيقة مفقودة، أو مخطوطة نادرة.

يومذاك، ما كنت أعرف شيئاً عن ميولك الأدبية والفنية والمستقبلية.

ما كنت أعرف أنك صاحب ريشة مرهفة وقلم "مروّس" وأنك سافرت إلى باريس للتخصُّص في الجداريات والنحت، وأنك شاركت في اكثر من أربعين معرضاً جماعياً.

ما كنت اعرف انك تعدُّ لإنجاز اللوحات الكبرى: عاشوراء، والحرب الأهلية، وسقوط النصّار، وغيرها من الأعمال الفنية المميزة..

وما كنت أعرف أنك عاشق لفن الموسيقى والغناء (وإن لم تكن موسيقياً ومغنياً) وقد تَتَرْجَم هذا العشق فيما بعد فكنت والداً لأجمل صوت وأرقى نغم عرفته بيروت.

أجل، ما كنت أعرف أنك تحب الشعر كذلك، وتكتبه ولك مجموعة منه لم تُنشر بعد بعنوان: "لكي لا يكون الصمت ..." ربما بسبب إفلاس مزمن!

أخي وصديقي مفلس ...

بعد مرور ربع قرن واكثر على معرفتي بك واكتشافي فيك العديدَ من المواهب والنشاطات، وجدتني اليوم أكتشف فيك قماشة الصحافي اللَّبق، صاحب قلم ساخر ومجلة ساخرة لا تسخر إلا من القبح والقباحات وصانعيها والمروِّجين لها.

إني أتمنَّى لك دوام الصّحة والعافية، ولمجلة "اشكال الوان" التي أحببت، دوام الصدور والإنتشار، ولكن بعد الحصول – طبعاً – على الرخصة المطلوبة حتى " لا تندك" حسب تعبيرك في السجن بسبب مخالفتك القانون، والقانون يا عزيزي لا يُطبَّق في بلادنا إلا على أمثالك وأمثالي من المفلسين ...

وأهلاً وسهلاً بك صحافياً مرموقاً على غرار الصحافيين القدامى الذين أسسوا لصحافتنا الرائدة، ومعظمهم بل جلّهم كانوا شعراء كباراً أو أدباء كباراً أو فنانين كباراً ولم يكونوا يوماً من خريجي كليات الإعلام في جامعاتنا الوطنية الرسمية والخاصة وفهمك كفاية...

يوسف صقر

يوسف صقر: –كاتب وباحث من مواليد بجه (١٩٢٩)
–استهل حياته مدرساً في المدارس الرسمية ثم انصرف الى العمل الصحافي والبحث التاريخي.
–له تاريخ بجه وأسرها في لبنان وبلدان الاغتراب.
–الكنيسة المارونية .....

(منشورات المركز العربي للمعلومات –جريدة السفير).
– حليم الحاج – سيرة حياته وفنه.
– حديقة الورد – لسعدي الشيرازي – ترجمة – قيد الطبع.
– مئات المقالات في الصُحف والدّوريات الثقافية.
– يمتلك مكتبة عامرة بالمراجع التاريخية النفيسة.

بعلبكي ... في صُوَر من الماضي

الشقيقان فوزي وعبد الحميد – ١٩٤٦

الشقيقان فوزي وعبد الحميد – ١٩٥١

بعلبكي في الثانية عشرة من العمر – ١٩٥٢

زملاء الدراسة في معهد الفنون ـ ١٩٧٠

الجالسون: حكمت جهجاء ، غالب عون ، سلمى معصراني.

الواقفون: (...)، يوسف مارون، عبد الحميد بعلبكي، فضل زيادة، اسكندر الجمل.

بعلبكي في بداية خمسينياته ـ ١٩٩١

في متحف الفن الحديث ـ باريس ـ ١٩٧٢

صديقي عبد الحميد ...

بيت من الشِّعر* ، ولو لم يبقَ منه سوى ما استبق القافية، رسم في وجداني وجهَ صديقي عبد الحميد بعلبكي، وما زال حاضراً في وجداني، أتمنّى مجالسته دون ريبةٍ أو مَلَل.

كان ذلك اللقاء في مطلع الستّينات، وفي برج حمود تحديداً، وقد جمع بيننا أكثر من وجه قُربى، وإن لم نلتقِ إلاّ بعد سنين طويلة، كأننا في قرار واحد إنطلقنا من فرجة قوسه من وإلى المدى الذي نقاربه حيناً، ونتباعد عنه أحياناً، كأننا تعارفنا على إيقاع المدّ والجزر وكدنا نتوحّد في كل وجوه الأماني. ولا أذكر أننا افترقنا مرة إلا على أملٍ بلقاء ...

واللقاء بصديقي عبد الحميد مهرجان لا تبين طرائفه إلاّ لمن كان مثلي على تماسٍّ وجداني معه. فهو عازف على الحواسّ، باعث في المخيِّلة ما فاتها من صور ماضيها وحاضرها، وكأن تلك القرى العامليّة التي أتمّت سعيها على مدى الخمسين عاماً الماضية فكادت تتنقل برمتها إلى الضاحية الجنوبية، ومن قبل إلى برج حمّود، ما زالت كما يراها ويرسمها معفّرةً بتراب الأزقة والبيوت، ناهيك عن شخصيات نوادره وحكاياه الطويل منها والقصير، والتي تلهث الأحداث خلفها سعياً إلى طرفةٍ تتلبّس حالك في حالها؛ وإذا بك بعد سردها عليك ممهّداً لها بمقدمة كلامه "ذات يوم ..." تستفزّك فرحاً أو كآبة. وهي حرفة يُتقنها صديقي عبد الحميد فتقتنع بل تسعد وأنت أسير أمثولته التي ساقها إليك ... وهي تورية شاطر "دهريٍ" عتيق!

وهو ديموقراطي، منفتح، ما يُغريه بالكلام عنك يغريه بالكلام عن نفسه. مخرج مسرحٍ بفطرته الدّالة على مخزون عرمرمي من خفايا الكوميديا الريفية التي تلازمه في قيامه ومنامه. تنظر الجنوبَ وبرجَ حمود، بتركيبته الكوزموبوليتية، والضاحية في ما يشير إليه سراً وعلانية. فهو لم يكن يوماً محايداً، ولن يكون، وهذه طبيعة الفنان الذي ابتلّت جوانحُه باللّون والكلمة، وما يلزم من شفافية تعصمه في جولات الصِّدام والمواجهة التي خاضها والتي يمكن أن يخوضها، مباشرةً أو مداورةً. فصديقي عبد الحميد يذكّرني بشعارٍ كشفيٍ قديم "كن مستعداً". وأجملُ ملامح غضبه حين يرفع "أبو منذر" يده مكوّراً سبابته على الإبهام ملوّحاً ببداية الغزو والنّزال.

ويدهشك في كل ذلك حذر مقيم بين عينيه ونظارتيه، واستحالة قمة رأسه البيضاء عرفاً لمنقارٍ فولاذيٍ ينقر ويغرز حتى تبيان الحقيقة في ما هو باحث عنه أو متشبث به ...

لكن صديقي عبد الحميد تلقائي أحياناً إلى درجة المسالمة فوق العادة، أو كأنه لاعب ورق غير "حرِّيف" تعترض شطارته وحنكته و"دهقنته" طيبة يفترضها ببداهة في من يظنُّهم أضعف خلق

---

* - البيت: لقد ماتت الاحلام ... حلّي قبابنا على الرمل والنهر فقد أرعد البحر .
وهو من قصيدة لبعلبكي

الله شأناً، حتى إذا استفاق من سكرة الطمأنينة وجد نفسه خاسراً "بالمجّان" ما ليس يتركه إلاّ بحد السَّيف، وهذا ما يجعلني متيقّناً من أن روح الفنان الوادعة في صديقي "أبو منذر" هي التي تجعل من خسارته تسامحاً مقبولاً على تمام الرضى والتسليم. والعجيب الأجمل فيه وعنده ذاك التعفُّف الذي يعتصم به، حَذَر الوقوع في ما وقع فيه الكثير من أقرانه ورفاقه، ألا وهو استبقاؤه الفرح الروحيّ العميق، مقابل فرحٍ زائفٍ آنيٍ هشٍّ، وما رسمُه للجذوع إلاّ رسماً لذاته أو "أوتوبورتريه" وكأنه يعني نفسه بهذا البيت من الشعر:

وأحوال الزمان عليك شتىّ وحالك واحد في كلّ حالِ

ومن لم يُصدّق ما أقول فليطّلع على "نطلة" صديقي عبد الحميد الأدبية في كشكوله الطريف "أشكال ألوان" وبتوقيعه "مفلس بن كحيان" ليدلّ على عدم انتمائه إلى زمرة "القروش" مكتفياً، قنوعاً، ساخراً من الزمن الذي يبلُغ فيه المزيّفون والفريسيُّون الموقع الذي لا يحسِدهم عليه إلاّ أمثالهم ...

فهل يكون هذا الذي قدّمت، سبب تشبُّث صديقي عبد الحميد بالواقعية تشكيلياً، كما هو تعليمياً لطلابه ؟! إنه بإيمان وثيق، يعتمد في تعليمه الأكاديمية وأصولها منجاةً من كل شطط، وصولاً إلى الحرية، حرية التعبير والفردية والتّفرُّد.

هكذا عرفته منذ أن أصبحنا صديقين زميلين في معهد الفنون الجميلة، وقد أكبرت فيه عدم مهادنته أي "حريّة" لم تتحدر من أصول وجذور واقعية، كما عرفته حارّاً بعلاقته مع من يصطفيه ويأنس إليه.

صديقي عبد الحميد طالما سعيت إليه بدافعٍ *نوستالجي التوجُّه*، وهو وعدٌ نفسيٌ بالجلوس في حضرة الجنوب المرئي والمسموع، وإن قلت المشموم فلست أجانب الصَّواب، ولا سيما حين يكون عائداً لتوِّه من "البلد" أي قريته "العديسة" حيث تكون ما تزال عالقةً على أهداب مفرداته رائحة الوزّال، والبلاّن، والصعتر البرّي، ناهيك بأريحيّة وحكايا لمن سبق له وأُعجب بمواقفهم، لذكاء فيهم أو سذاجة. فلكل وصلة حديث عند "أبو منذر" محطة "استعارة" أنتظرها بفارغ الصَّبر، أضحك لها، ويضحك معي، طويلاً ... ونسدل الستارة معاً على صديقين جمعهما منذ مطلع الصِّبا بيت من الشعر في برج حمود، وما زالا تحت كسائه منعمين بحرية ... أو بوضوح أكثر ... بعدم انتمائهما إلاّ إلى الإنسانية في جوهرها الأسمى.

بيروت في ١٩٩٨/٢/٢

حسن جوني

عمرٌ من التعارف ... وما زلنا نتعارف !

حين قرأتُ عبد الحميد بعلبكي شاعرًا ، زمنَ دراسته في دار المعلمين أوائل الستينات ، على غير معرفةٍ مُسبقةٍ بيننا ، أبصرتُ هدوء اللقاء به ، وأدركت أنني سألتقي يومًا ببحّارٍ يحملُ أصدافَ من أقصى البحار ، فوقه راحتين بحجم الماء ليضعها فوق عيون العاشقات .

وطال يوم اللقاء المنشود ... دخل في صدأ الهموم المستجدّة عليّ وعلى الوطن ؛ وما استطاعت الخيول الموعودة أن تحجم في نوبات الذاكرة !

وجاء يوم آخر ، كان أعلى من البحر ، وأعلى من السرو الباسق ، حيث طار الحمام إلى جهة جدرتها رياح البحر وهدايا العاشقين ... في معهد الفنون الجميلة ارتفع اسم عبد الحميد بعلبكي فوق جدارية « عاشوراء » الموضوعة بين حجارةٍ وظلال لهيكل فنّ بعثرت رنينه أصواتُ المدافع وزمجرات الرصاص التي تلامس الدم وتصرف تبديل حروف التاريخ بأشياء متناثرة تشبه المسامير !

وقفتُ أمام عبد الحميد بعلبكي الرسّام . تذكّرته شاعرًا ... تجمّع عالم الماضي في عينيّ ، وصحوتُ ، عيناي مبهورتان ، والدنيا ولا أبهى ، عرس وصلاة وأشواق ...

وعُدتُ إلى القادم إليّ من عمق الذاكرة ، إسمًا محفورًا على جدارية عاشوراء . تخيّلته ينتصبُ أمامي باسمًا . طلعته المحيّا ، طويلَ القامة كالعبّاس ... ثم غبتُ وغادرتُ الاسم والجدارية ، والشاطئُ محتشدٌ بموجٍ واحد ... ومسافرٍ واحدٍ لا يدري أي بحرٍ يقصد ، وهل بإمكانه العودة بأصداف يحملها ليضعها فوق عيون العاشقات ؟!

وقع عبد الحميد بعلبكي في الوجدان ، شاعرًا ورسّامًا أنتظر قدومه من سفرٍ طويل فوق حصان جامحٍ لا ينقطع له صهيل ... وتوالت الأيام ، وتبدّلت الظروف والأمكنة ، وطغى على رفيفها بُرودة الأجداث الأليمة التي عصفت بلبنان ، وكان أنّ صديقًا فنانًا اسمه الدكتور أحمد عسيلي ، طرح أمامي صُدفةً اسم عبد الحميد بعلبكي كفنانٍ وكاتبٍ وجامعٍ للتراث الشعبي ... أين هو عبد الحميد هذا ؟ قلت له ...

وعدني أن يُعرّفني به ، ثم غاب . ومرّت أيامٌ وشهورٌ قبل أن يجمعني بالدكتور عسيلي من جديد لقاءُ رصيفٍ قرب جريدة السفير ... يومَها قدّم إليّ شخصًا كان بجانبه ... عبد الحميد بعلبكي . لم أنبس بكلمة ... بل وقعت في دهشةٍ لم تمنعني من مصافحته بحرارةٍ مرفقتها بودةٌ تدخّل الدكتور عسيلي الذي أثنى عليّ كهتمٍ بالثقافة ، والتراث والفن التشكيلي ، والخط العربي وما إلى ذلك من أنشطة ثقافية قد تعرّف واحدنا إلى الآخر أكثر . وزاد ذلك بُرودة كلمة عبد الحميد ... أهلاً . صوت خافتٌ ، عينان صغيرتان ، قامة بونابرتية ، وكتفان يكادان يهزلان من ثِقَل نسمة ! في تلك الهنيهة ، وبتلقائية ، وجدتني أطرح عليه أسئلة كثيرة كنت أتوخى أن تقربني أجوبته عليها من التعرّف إليه أكثر ... وظيفته ، أسلوبه في الرسم ، اهتماماته ، طريقة تعاطيه مع النشاطات الثقافية ، والتراث ، والملحمة الحكايا الشعبية ، والمأثورات ، وانتشالها من ضياعٍ محتوم بغياب حافظيها وجميع المؤتمنين عليها .

لكنّ الرجل ظلّ أميلُ الى الصمت ، كأن كلامي لم يُدغدغ سمعه المشدوه في زحام هذه الأسئلة . أدركت آنئذٍ أنّ مخوضه رهبة ، وأنّ بيروت التواصل بيني وبينه سيرتفع ...

إتفقنا أن نلتقي ، ومعنا الدكتور عسيلي ، في موعدٍ قريب ، في مكتبي الخاص المجاور لجريدة السفير ، لكنّ ظروفاً أمنية منعت اللقاء .

كانت المدينة تعيش الحربَ قيدًا على أطرافها وشبهَ إفلاسٍ في هوامشها الثقافية ، لكنّها بالتمرّد والمكابرة لم تمكّن الأجداث من أن تسلبَ من رشدها صباح اليقظة والصحوة . وهكذا كان كل لقاء ثقافي يؤرّخ لبداية ... لتخطّي جدرانٍ باردةٍ كانت تفصلُ بين الوضع الأمني المعاش والواقع الثقافي الراهن .

مع الوقت بدأت حرارة التعارف بيننا تتأجج شيئاً فشيئًا . وذات يوم قصدني عبد الحميد كشاعرٍ مُبديًا رغبته في أن أخطّ له مجموعةً شعرية تزيدُ عن مئة صفحة .

أثناء عملي في المجموعة كان عبد الحميد يجلس مُطرِق الوقت صامتاً ، وعلى حذر ... كان مجهرُ النقد في جيبه . لم يستلَّه في أوّل لقاء . كأنه كان يتهيّأ في هذه البداية لنهاية ما ... في اللقاء الثاني ، وكان قد لمس نتيجة العمل بدا لي وكأنه قد تخلّى عن حذره . رحت بتقلبٍ فوق المقعد مرتاحًا وبدأت نحلته تسرح ! كان يهلل أو يتأوّه عند كل انسيابية حرف أو عند كلّ مشقٍ جميل ، ويناقش حتى أنّه أفاض في النقد والملاحظات . وقد أراحني وشجّعه على التطاول في إبداء رأيه سعة الصدر ورحابة الصفتين .

إكتشفتُ في هذا الرجل فناناً مميزًا سليم التذوّق ، يستطيع أن يرى بعينيه الصغيرتين ، أضخم الأشياء وأدقّها . يتابع بكثافة وإحساس كلّ ما يتصل بفن الخط العربي وأقلامه ... يسأل ، ويجاذر في السؤال ... يقتنع وقد لا يقتنع . ويتدخل في الأشياء كما لو كانت من اختصاصه ، أو كأنما وُجِد ليضع وحده قوالب الناس ، ويرسم لهم كاريكاتيرهم ! ومرّة بعد مرة كنت أحاول تبريره ... لأنني اكتشفت أن أعماق تفاعلي ، كما لو كان يجيء في داخله ناراً موقدة ... لم يكن يعرف المهادنة في توجيه نقده وملاحظاته لأنه كان على قناعةٍ تامة بأنّ العارفين يجب أن لا يقعوا في الشطط . ومع أن

جدارية «عاشوراء»
زيت على قماش ـ ٣٦٠ × ٢١٠ سم

الكمالَ للهِ وَحْدَه ، لكنَّ الفنانَ ، وفيه شيءٌ من الله ، يجبُ أن يبذل أقصى الطاقة في تجنُّب كل ساقطٍ أو مُعيب في مهنته .

مخيفٌ لهذا العبدُ الحميد بإصراره على الدقة والإتقان ... لكنه يُدخلك بسهولة إلى تخومه فتراح إلى رحابتها ، ويُسكنك ضفتيه فتطمئن إلى سماحة فيه خفية كأنك تتدفأ ريحاناً ، وتأنس إلى عذوبة فيه تشترك بسلاستها وسحرها فلا تلبث أن تنساب وئيداً في أنحائه وهضاباه لترف فيه صورة فلاح طيّب ، متأبطاً محراثه ، رافعاً رأسه ابتهاجاً بطلوع الشمس . وترى فيه فلاحاً من نوع آخر يبذر في تلوم شوارع المدينة حبّات الحياة على أمل أن يستفيد الناسُ من جناها الوفير خبزَ الحياة خالياً من كل طقوس الجهل والضغينة والتصنّع ...

عبد الحميد بعلبكي على خصام مع كل الطواويس ، والضاحكين ببلاهة المستسلمين للمقادير ، وضوء الكراسي المزروعة على مقاهي الرصيف . وكأنه في سعيه اليومي يلتزم ترتيبَ الكون من جديد . يُفتش ويُنقّب عن أشياء كثيرة ضيّعت الشعورَ بقيمتها مخاضاتُ الأحداث الأليمة ... أشياء فنية وثقافية مُبرّأة من الطمع المادي . أتساءل أيّ همٍّ يسكن هذا الرّحلَ ، وهو يردّد مع المتنبي بإعجاب : أيّ مكانٍ أرتقي ...

لا أدري كيف يتّسع جسده النحيل لكلّ ما لديه من طموحات ، ولا أعرف كم من الإرهاصات يحتضن في نفسه . أعرف بالتأكيد شيئاً واحداً : إنه بنّاء (معمرجي) بامتياز ، ممنوع عليه أن يغلط كي لا يكتوي جدار البيت الذي يحلم بأن يكون بحجم الدنيا . أقدّر طوفيّ سعيد عيناه متعلّقتان بعالمٍ وفيٍّ لإنسانيته التي تنتجُ مع الرغيف كرامةً وفناً ومعرفة .

الخطاط علي عاصي

إرتريتان تنزّهان طفلاً على الكورنيش
زيتية ـ ٨١ × ١٠٠ سم

لوحة الشدَّة ـ (تفصيل) . زيتية

تفصيلان من لوحة العرّاف . زيت على قماش

يا حادي العيس

مأثورات شعبية من جبل عامل

وجهُ أمي ... في سن السادسة والثمانين !

البلاد الكنز، ريف مملكتي صيدا وصور...

جبل صيدّيقا، لكثرة ما كان فيه من الصدّيقين.

جبال بني عاملة المعمورة بالقرى النّفيسة، على حد قول المقدسي، المؤرخ الكبير.

الجنوب ... أرض العلماء والشُّهداء، حيث يرتعش المدى بالمواويل الحزينة، وتتّحد الفطرة بالنّجابة ، والدم بالعبير، كل هذا، كنت ولمّا أزلْ أراه، يتجلّى في روحها الدافئة التي تفيض بها ملامح ذاك الوجه الوقور.

كانت أمي واحدةً مميّزةً من تلك النساء العامليات اللواتي كن يحفظن في صدورهن موسوعةَ التُّراث والثّقافة الشعبية. كانت هكذا دون أن تعيَ شأن ذلك .

وكانت بطبعها تتحدّث لغةً يومية غير مباشرة، لغةً تتداخل فيها الأمثال بالكنايات والتّوريات وأحياناً الشعر.

وتأثُّراً بها جمعت على مدى ثلاثة عقود من الزمن المئات من المأثورات، والأمثلة والتعابير التي أرجو أن تسمح ليَ الظروف، ذات يوم، بنشرها في كتاب .

بعض هذه المأثورات التي أخذتُ معظمه عنها أورده هنا كنماذج ، تقرُّباً إلى روحها الطاهرة حيث هي الآن ... في مستقرّها العُلوي !

من أغاني الترقيص للأطفال

نُلفت نظر القارىء إلى أنّه مع إجراء تشكيل الحروف لا بد من مراعاة اللّفظ باللّهجة العاميّة لاكتشاف موسيقى هذه المأثورات، باعتبار أن هذه المأثورات حُفظت من خلال الغناء أو التنغيم، وبخلاف ذلك تفقد كثيراً من رونقها، وطلاوتها، وموسيقاها...

- إيني عَمْ يكبر عَ اللّسْ — عِرق نعنع بين الخَسّ
  واللي قلبها بيوجعها — تْشِمّو شمّة بتقول بسّ

- دَخْلَك، دخْلَك، دَخْلولَكْ — اللّه يخلّي لي طولَكْ
  اللّه يكبرك وتعيشْ — وتتوظّفْ وتصير شاويش

- – دَخْلَكْ، دَخْلَكْ دَخْلَكْ دَخْلْ — بخْصيكْ واللّه بخلّيكْ فحلْ
  – يا إمي لا تخصيني — شبّ زْغَيّر خليني
  عَ البنات لا تدلّيني — بيدوْوا عليّ مثل النّحلْ

- دلّي بشْعورك دلّي — نِخّي عَ البير وملّي
  مَحْلا العنبر عَ بزازِكْ — ومحلا شكلة قنبازك
  وبيّك بيوم جوازك — بْيحكم حكْم العثملّي ..

- عَ التّشْ التّشْ يا بابا — بعْدك بالعشّ يا بابا
  بيّك جمّال يا بابا — خاطرْ عَ الشام يا بابا
  يجيب لك كردان يا بابا — تمشي ويخشّ ...عَ التّشْ التّشْ ...

- بِنْت المَلك عَ الشّباكْ — بتاكل خوخ لتتبحّ
  يا حامض ... يا لِفّاني — زرَعْتَكْ ببستاني
  بيّ شَكّ اللولو — ما بعرف شو بيقولوا

بيقولوا ترْلاّ لاّ ...

يا حادي العيس

- يا حادي العِيس قلْ للغايبين يلْفوا — وعيوننا السُّود من كثر البكا تلْفوا
  وحياة من أخلق الرُّمان بغلفو — بيحقّ للولف يبكي لو رَحَلْ ولْفو

- من دمع عيني تَلّيت البيرْ لقرانو — ومن دمع الأخْرى مطاحين الهوا داروا
  وحياة سيدي علي والبيت وركانو — بيحقّ لْلولفْ يبكي لو رحل جارو

- يا حادي العيس سلّم عَ المشاريقي
نذر عليي ان جمعنا الدهرْ يا رفيقي
سلام ما تحملوا خيل المعانيقِ
لَصوم شهرين والشهرين عالريقِ

- يا حادي العيس سلّمْ لي على ولافي
وحمّلتْ عودْ الضنا تالانت كتافي
مدري حرادي ، مدري البعد بيجافي
ما فقت عَ البَيْن تاغدرني واني قافي

- يا ابا الحَسَنْ يا علي دَخلْكَ أنا المظلومْ
وحياة شهر الصلاء وحياة شهر الصّومْ
واستيسرونا النصارى عَ بلاد الرومْ
من يوم فقد الحبايب ما إجاني نـومْ

- يا حادي العيس يا سُكّرْ بعيدانو
لا وحق سيدي علي والبيت وركانو
يالله ترّد الغريب عاهلو وعلى وطانو
ما بعتب الجار هنّي الأهل ما دانو

- يا حسرتي كلما عدّلتْ حملي مالْ
عاشرْ أجاويدْ منهم تكتسبْ وتنالْ
لانو حديدا ولا زايدْ عن الأحمالْ
ويعدّلوا محملك بيناتهن لومالْ

- يا حسرتي حمّلوا وانـي جَمَلْ مالي
والناس كسبت واني ضيعت راس المال
والناسْ كسبتْ واني ضيّعتْ رسمالي
وطلّعتْ خسران لا مكسب ولا رسمالْ

- من قصرطُوس العَجَم جبنا لحيدر بابْ
وحياة سيدي علي، وحياة داحي الباب
والسُكرة من ذهبْ والعُود من عنّابْ
ما ذوّبِ القلبْ إلا فرقة الأحبابْ

- راحو من الإيد شو عادْ الكلامْ يفيدْ
وان كان يوم القيامة منلتقى يا سيدْ
واصبحتْ حيران مَسّح كلْ دمعة بإيدْ
يا ربّ يوم القيامة ما يكون بعيدْ

- والصّبر جبناه معنا لاجل بلوتنا
انكانُه من الله خذنا الله حُصتُنا
وحجارة الدّار بكيتْ لاجل فرقتنا
وان كان من العبد الله عليه خطيّتنا

- صار لي يا إمي ثمانْ سنين بالقلعة
يا من يخبّر لإمي وإخوتي السّبعة
كَفّي مرصرصْ وعيني تسكب الدّمعة
تعملْ وليمة وتنذرْ للنبي خلعة ...

- يا رايحين الشّام جيبوا الشّام بمنديلْ
.....
والبرّ بمكحلة والقمرّ بقنديل
.....

- يا غلبتي غلبة الفدّان بنيرو
وينو حبيبي رفيق الرُوح لاحكيلو
لا هو بيشكي ولا الحرّاث يرثيلو
حملي برَكْ والعدا وقفتْ مقابيلو

- يا عين حاجي بكى بيشحّ ميزانكْ
والناس تلبس ثياب جداد يوم العيد
والناسْ بفراحْ وانتِ دومْ بحزانكْ
وانتِ جعلتِ ثياب السُود قمصانكْ

- واصبحتْ كاني جمل بُصرُصْ على نابي
مجروح جرح الأدَب والجرحْ جنابي
من تقل الاحمال بتقلّب على جنابي
لا الجرح يُبرا ولا الجمال يدرى بي

- يا مسلمين استجابتْ دعوة الدّاعي
ريته الذي كان بيومْ فراقنا ساعي
وتفرّقْ الشّملْ بعدان كان جمّاعي
يبلى بكاس العَمَى ويذوقْ أوجاعي

- يا دربْ مكّة يا عودْ النّدْ ندّيتِ
نذرِ عليي لو لْفيتوا على بيتي
ريتك سعيدة كما خذتي وردّيتِ
لا ضويلكم شحْم قلبي لو خلّصْ زيتي

- نامت عيونَكْ وعين الله ما نامت
محلا ليالي الهنا يا ريتها دامت
وعمرها الشّدة على مخلوق ما دامتْ
ويا ريت ليالي السّوْ لاطلّت ولا بانت

- يا هاكل الهمّ والدنيا عليك ضاقتْ
واقعد حِدا الميّ واشرب كل ما راقت
إسكن بلادْ التي بأهلها لاقتْ
ربي كريم بيفرجها إذا ضاقت

- يا نِجمة الصُبح طلّي وارجعي لله
وحياة من نزّل المصحف كلام الله
واقري سلامي على حجّاج بيت الله
نحن افترقنا ويجمع شملنا الله

- يا حادي العيس قلّو للمكاري يسوقْ
وحمّلت طبل الهنا وبرمت سُوق وسُوق
تانلحق الشّام قبل ما يطلع العيُوق
وما لقيتْ يا حسرتي ولاحظ من مخلوق

مسيّك بالخير

- مسيّك بالخير يا رمّان حامض فقشْ
لملْكَكْ قصرْ عالي وزردخانه نقشْ
يا للي وقع بالهوى ومنّه بعدما فقشْ
ولملْكَكْ أرض والله ما دخلها وقش

- مسيّك بالخير يا عود القنا ذبلانْ
وشبّهتْ حمرة خدودك ورد بنيسان
يا للّي تقوم من منامك تجفل الغزلانْ
بتسقي الغريب وأني بمنزلك عطشان

- مسيّك بالخير يا شقفي من الصندوقْ
تمنيت عدوكْ بقلعةْ حلَبْ مشنوقْ
يا بارز العنق، يا شارب حليب النُوقْ
بيدّ ظالم، وما يشفق عليه مخلوق

- مسّيك بالخير يا خشّ الخشاخيشي
  يا أسمر اللّون يـا شيـخ الدراويـش
  وان تقصد المال خوذ المال كليتو
  وان تقصد الرّوح خذها وما تخلي شي

- مسّيك بالخير يـا سيّد بـلاد الهنـد
  يا للّي قَصَدْتَكْ من بلادي وجيتك إنتْ
  وحياة من أخلقك شبّ وخلقني بنـتْ
  ان عشنا لداير سنة ما باخذ الاّ إنـتْ

- ان عشنا لداير سنة ما بسكنْ الاّ مصرْ
  وبعمريلك عمارة وفوق منها قصـرْ
  طِلع المنادي ينادي عَ ميـاذن مصـر
  والخبز والملح ضايع مع قليل الأصلْ

حبّيتْ محبوب ....

- حبّيتْ محبوب ما مثله كحيل العينْ
  كفّو مْحنّى وزنّـارو حريـر شكليـن
  لما بينزل تايرقص بيحيّر الصّفين
  قولوا الصّلا عَ النبي تاما تصيبوا العين

- حبّيتْ محبوبْ يا رب السّما تكنْ له
  ومهما حَصَلْ لي من الموكول تاشيل لُهْ
  وبجيب قميصو الحرير وبالعطر بلّو
  وبنـشّـروا بالهـوا وبِنـام بظلّـهْ

- ومْرَقّتْ عاداركن عرقان تاتهـوّى
  وطلّعتْ من داركُن بالنار بتكـوّى
  جابوا حكيم مغربي، جابوا حكيم حوا
  دسّ المفاصل وقلّي يا صبي تكوّى
  وشو بينفع الكيّ للّي علتو جوّا؟!

* * * * * * * *

- طِفل زغير يحوشْ القطن عن عودو
  ومن زغبتو بالأساور شَنشَلْ زنودو
  جودوا علينا يا أهل الكَرَمْ جـودوا
  تِفاحنا السّكري مْذكّي على عـودو

- عَدّيتْ بستان ولْقيت كل نصبوتـوتْ
  وزهر البنفسج على امّو بيوتْ بيوتْ
  يا معمّر القصر من لولو ومن ياقوتْ
  لا بد ما القصر يفنى والملوك تموتْ

- عَدّيتْ بستان فيه أربـع بساتيـنِ
  وبكل بستان فيه أربـع دواويـن
  وبكل ديوان فيه أربـع سلاطيـنِ
  وكل سلطان يملي الكاس ويسقيني

- تْمنّيتْ أني وحبيبي بالبراري شهـرْ
  بجنـب بستـان والبسـتـان حدُونهـرْ
  لما غمزني وغمزتو زاد عندو القهر
  صار الورق يِرتْعِشْ والعشب يرمي زهر

- مارق على بابنا وهبّ الهوا بذيلكْ
  وارتجت الارض من صَكّةْ رَسَنْ خيلكْ
  جيبْ الدّوا والقلم لاكتب على ذيلك
  إنتِ حبيبي وما بهْواشْ حـداً غيـركْ

- مارق على بابنـا بوشنتيان هَفّـي
  ومِفَصلو أجْكَرا ومِخيّطوا مِخْـفي
  بِحْلِفْ ولو هرّموا لحمي على كفي
  ما بِبيح بالسرّ لا مَجْهر ولا مخفي

زلاغيـط العـرس والفـرح

- آويها: عروستنا زغيري زغيري وقلتْ ما شاللّه
  آويها: متل عروستنا ما خَلَقْ اللّه
  كـل البساتيـن تِزهـرْ بالسّنّـة مـرة
  إلا عروستنا بتظلْ محمرّة

- وعيونَكْ السّود لما تْكَحّلوا راقوا
  وخْدودَك الحمُر يا تفاح بوراقـو
  إجوا بنات الهوى لمبسمكْ ذاقوا
  راحوا سكارى ولحد اليوم ما فاقوا

- يا سِتْ عروسةْ قَتَلْني سواد عينيـك
  وتلملم الحسـن كلـه وانتقـل ليكـي
  ويا سجرة العالي ومَيّي حواليكـي
  بيروح قتيل العطش وما لو وصول ليكي

- يا سِتْ عروسة ويـا تفـاح لورَنْجـي
  يا قصر عالي وشبابيكه على المرجة
  رُحْتي على الشّامْ لقيتي الشام مهترجـي
  والحجّ ما رقّ وكل الناسْ بالفرجـة

- وعيونِكْ السّود خلّوني أني بهمّي
  وخدودَكْ الحمر نسُّوني أبي وإمي
  وبكون نايم بنصّ اللّيـل متهنّـي
  بيخطر جمالك على بالي بيجنّنـي

- يا سيدْ بو (فلان) عِدّ خواتْمَك بيدك
  والكرمْ كَرْمَـكْ واللُّولـو عناقيـدك
  ودْعيت ربّ السّما يعطيك ويزيدك
  وتصير حاكم وكل الناس تحت ايدك

- يا ريتني مـرج اخضر
  يجي الغـزال يرعانـي
  يـا رب تشتّي الدّنيـي
  ويرجع ربيعـي الثّانـي

- يـا ريتنـي سنونـي
  عَ شريـط التلفـونِ
  كلمـا اشتقـت لحبابـي
  حاكيهـم ويحـاكونـي

- يا بـو العقال المرْعِـزْ
  يالّلي ما تخاف مـن الله
  اكثـر همومـي منـك
  والناس تقول مـن اللـه

يا بو العقال المرعز — يا محيّكتو بديعة
وان ما اعطوني لحبي — الدنيا بوجهي وسيعة...
جانا الشتا من قبلي — سبحان الدني رشّو
البيضا لبست دمالج — وكيف ما مالت بيخشّو

* * * *

معارض شهر التسوق بين البساطة والافتعال
اللوحة سلعة اخرى والفنان لاهث وراء السوق

«مقالة لعمران القيسي مقتطفة من جريدة نداء الوطن نعيد نشرها لأهميتها ... بالإذن من الكاتب.»

حتى الامس القريب كان الفن التشكيلي اللبناني محصناً باسراره، او على الاقل بعدم «اندلاقه» هكذا، سهلاً سريع العطب. لا علاقة له بهذا الذي كنا نسميه نزق المبدع وتباهيه.

كان الفنان اللبناني ينتج لوحته، لذاته، يرسم تلقائياً ويفتش عن كل ما هو مدهش، لان اللوحة التي لا تشبه غيرها هي التي تقدم ذاتها كمفردة في سطر الإبداع والتجديد... كان الفن اللبناني والى حد كبير محصناً بقناعاته. لذلك كان التواصل بين الفنان والجمهور يقوم على مبدأ ذوقي آخر، لم تألفه حركات فنية اخرى. بقي هاجسها الوصول الى الحالة التوفيقية بين اللوحة كذوق استئنائي وبقية اثاث المنزل كذوق شائع.

اللوحة لدى جيل السبعينات والتسعينات والخمسينات من قديسي الفن في لبنان، كانت المصير الثقافي، الذي تتميز به هذه الثقافة المكانية التي لم تكن تتملق للمكان (الوطن) بل تعلن انتماءه اليها لانها تطالب ان يكون الوطن ابداعاً ذوقياً بمستوى المغامرة الابداعية الفنية.

كرساميين، لا كفنانين فقط، كنا نسعى وراء النص الثقافي الفكري لكي ندونه في أجمل انشاء تصوري نحاول ان نصل فيه الى بؤرة الارتعاش الفكري لدى الكاتب. ولم تكن المعارض سوى الحدث الاحتفالي الذي يعلن فيه الفنان اللبناني ولادة هذا الجديد الطالع من (تنور) حالاته الاختبارية التي ينتجها متجنباً التسطيح والتكرار.

هكذا كانت مناسبة المعرض عن جان خليفة، بول غيراغوسيان، عادل الصغير ميشيل بصبوص وآخرين. ربما طواهم الموت دون ان يطالهم النسيان والحضور طبعاً.

غريب امر هذه الحرب اللعينة. فبدل ان تتحول الى ذلك (المبرد) الذي (يكشط) الصدأ عن جلودنا، زادتنا الحرب ارتباكاً بكل ما هو صدىء ورطب واعتذاري.. نبهت البعض ربما الى ضرورة الانتفاع من هذا الزمن الفائض الذي يعيشونه اليوم. والى ضرورة ان يكون الفنان متسلقاً بارعاً للسلّم الاجتماعي.

بدأت اللعبة الوصولية اولاً. من خلال هذا الحكم الرديء الذي اغرق الاسواق بمعارض مستعادة لفنانين كان يجب الا يكرروا ذاتهم. وصار المعرض مناسبة للتسويق على ضوء ذلك الحضور الرسمي الغبي الذي يأتي يوم الافتتاح لتسجل كاميرا الصحافة رعاية السيد لنتاجات ابناء الرعية.

المناطقية والطائفية

البعض تمادى في اللعبة السوقية. فذهب الى ما هو اسوأ من مناطقية اللوحة. فالفنان الطرابلسي الذي حشر تراث مدينته المعماري على مسطح لوحته، اقترب كثيراً من الحالة السياسية السائدة في المدينة. حتى اننا كنا نسمع بعض سياسيي المناطق يطالبون الآخرين بتعميم اعمال (ناخبيهم) من الفنانين.

وليست لعبة المناطق وحدها استحوذت على بعض تيارات الفن. بل لعبة الطوائفية ايضاً. فبتنا نشهد لوحة تكشف عن مجد انتمائها الطائفي بكل ما لدى الطائفة من رموز... ويحضر الزعيم طبعاً ليفتتح المعرض معلناً انتصار ما عززه من امجاد للطائفة اثناء نكبة الحرب الطائفية.

الانتهازيون والاكواريل

وما بين مناطقية اللوحة وطوائفيتها بدأت تطل تيارات انتهازية عديدة. بعضها ركب لوحة المنظر (الاكواريلي) المائي. على اعتبار ان هذه اللوحة هي اللبنة الاصيلة للفن اللبناني المعاصر.

بقيت المغامرة الابداعية كهاجس تانوي عند البعض. وتحول الندب حالة ابداعية عند البعض الآخر. حتى قامت تجمعات للندابة الفنانين سعت الى ترسيخ العديد من الرموز البسيطة المكررة كشعارات تشكيلية تنتمي الى الجنوب المنكوب احياناً او الى (قانا) الشهيدة القتيلة تارة اخرى.

مهرجانات تسويقية للوحة الهجين تحت ستار التعاطف مع هذا الحدث او ذاك. وانتساباً لهذا الموقف او ذاك. وفيما القلة القليلة من الفنانين يشتغلون بمثابرة من اجل تطوير مفاهيمهم للعمل الفني الحديث الذي يستطيع ان يدخل مغامرة القرن الحادي والعشرين، مشفوعاً بكل ما فيه من متانة وتفسير متجدد لمعنى الفن. تطل بعض الجثث الفنية التشكيلية من رقادها، لتعمم لوحة سيئة، ليست اكثر من ثرثرة سياسية متملقة تتوسم الحالة الكولاجية لتفصح عن علاقات كارتونية بين القوى السياسية وبين الشرائح التي يتكون منها الوطن.

لم نسمع بأحد من هؤلاء الذين فرغوا يعلن فراغه واعتكافه، تاركاً المجال للنقد لكي يقيّم مسيرته الحياتية الابداعية بشكل محايد. بل عشنا (تصابياً) فنياً لاناس باتوا عاجزين حتى عن تحريك (عجيزاتهم) على مسطح العمل الفني الذي ينتجونه.

والغريب ان فنانين لبنانيين اوجدتهم السهولة واستولدتهم ماكينات التققيس التي يسمونها صالات العرض المنتشرة هنا وهناك، باتوا يشكلون العصب الجديد لرعيل الشباب. وعندما تطالع اعمالهم تجد ان ما انجزوه اقل من محاولة اولية لانتاج لوحة حقيقية. تستحق ان تحمل هذا العنوان المبهر. وقد ساعدت على تفشي حالة الابتذال التشكيلي اكثر من مناسبة مهرجانية لمعارض جماعية. علقت خلالها النتاجات بشكل عشوائي وغريب.

الاخطر من كل ذلك لعبة العديد من النافذين والمقربين لدى اصحاب النفوذ في ترويج هذه الاعمال او تلك. حتى بتنا نفاجأ بارسال بعض الاعمال الفنية لهواة كي تمثل لبنان في معارض وبيانالات عربية تحضر لها الآخرون بشكل جيد، وبعقلية نقدية متقدمة.

في هذا الجو «المعطوب» ابداعياً تطل صرعات تسويق اللوحة. سواء عبر اعلان بعض حالات العرض عن تخفيض مقداره ٥٠ بالمائة على سعر اللوحة اللبنانية، لفنانين لبنانيين معروفين.

كما اعلن امس في احدى المحطات التلفزيونية، او من خلال مساهمة بعض حالات العرض بمعارض جماعية تسويقية تراعي مبدأ التنزيلات السائد.

ماذا تبقى غير ان نتعامل مع هذه القطعة المرسومة بهذه الروحية السوقية؟

ماذا تبقى غير فنان يعلن صراحة، بانه يرسم الآن كما كان يرسم قبل عشرين عاماً لان تلك المرحلة اسرع من حيث التسويق؟

ماذا تبقى غير النتاج الكمي السيئ.. والهدف هو القضاء على هذه الظاهرة التي كانت حتى الامس القريب احدى المعالم الاساسية في الثقافة اللبنانية؟

كيف ساهمت بعض القوى الرسمية في هذا الذي وصلنا اليه... ومن هو المسؤول تحديداً؟... هذا ما سنجيب عليه...

عمران القيسي

عبد الحميد بعلبكي
فنان الصمت والظلال والظنون

أن يكون عبد الحميد بعلبكي فناناً، فهذه بداهة تنطلق من كونه هكذا، وإلا كيف أعرفه على هذه الهيأة الإحتمالية التي تجعلني أراه هكذا دائماً فناناً رغم عدم مشاهدتي للكثير من أعماله، في معارض جَماعيَّة مبعثرة في الزمان والمكان هنا وهناك، ومعرفتي أنه أقام معرضاً فردياً يتيماً في غاليري "وان" لصاحبها يومذاك الشاعر يوسف الخال، وبعدها ظلّ عبد الحميد التشكيلي المتميِّز كما يُقال، مقيماً أو سائراً ، نائماً أو طائراً في احتمال معرض فردي جديد، آلى على نفسه أخيراً أن يُعلنه في شهر آذار ، وفي الصالة الزجاجية التابعة لوزارة السياحة . .

وكأني به الفنان الجَوَلاني، السائح في أحلام يقظاته، وهو يزرع شارع الحمراء في بيروت جيئة وذهاباً، أو السائر في مناماته حين يغيب بعض الوقت وألتقيه مصادفةً، في الحمراء، أو ناحية الجامعة الأميركية، للسلام والكلام في شؤون وشجون عن الحياة، والفن، وعن أشياء وأشياء قد لا تمتُّ بصلةٍ لما نحن عليه، أو ما نحن فيه، خاصة وأنني أركز جلّ اهتمامي على النشاط التشكيلي في بيروت، وأكتب فيه عبر جريدة اللواء، ودائماً يستوطنني هاجس دانٍ وبعيد، هو أن أحظى بفرصةِ معاينةِ فن عبد الحميد بعلبكي عبر معرض خاص به، وأراه قريباً.

ومما يقلقني الآن، ويثير إشكالاتٍ شتّى في وجهي هو أسلوبه الفني الذي استخلصتُ بعض القرائن له من أعمال متفرقة رأيتها وانطبعت في ذاكرتي، لأقول عنه أنه فنان واقعي، مؤسّس في الأصول التشكيلية، والرؤى الجمالية التي يتطارحها. ولديه إحساس عميق فاتن وفادح في الزمن، كما أن تقنياته ومعالجاته اللونية محتدمة، مرويَّة، حافلة بالخصوبة، أَلِقة نَضيرة ، مليئة بالرَّواق والرواء.

والرَّواق التشكيلي الذي افتتحه ذات عام بمعرض جماعي يتيم، كان من طموحاته تجاه الحركة التشكيلية اللبنانية. وكان تسلَّم قبلها رئاسة جمعية الفنانين اللبنانيين للرسم والنحت. ونشَّط الحركة التشكيلية فيها عبر معارض جَماعيَّة وفردية في صالة الجمعية، إلا أن عالمه الفنّي بقي منغلقاً في سريرته، وهو يتوارى عن الاعلام ارتأى أخيراً أن يُصدر صحيفة كاريكاتورية توزع باليد، يحررها في الغالب هو ، وتنسخ على الكمبيوتر في صفحات معدودات، يشكو فيها سوء حاله، وسوء حال الفنان إجمالاً. ويرى إلى العالم بعين متهكِّمة متشائلة. وينشد من خلالها عدالة ما، ولكن عبد الحميد أسمع لو نادي حياً .. !

ولأن عبد الحميد مدرس فنون ممتاز، فقد خرّج أجيالاً يشهدون قيامه بواجبه، ودأبه في تعليمهم، وربما هذا ما صرفه من وقته وحياته، وفوّت عليه فُرَص النشاط الفني الذاتي، بينما أقرانه

أفاضوا في نشاطاتهم ومعارضهم الفردية، حتى أخوه الأصغر فوزي الذي كنا نتهمه بالكسل عبَّأ طاقته ومارس نشاطه الفني في معارض فردية وجماعية. فاقت نشاطات عبد الحميد. وربما كان ذلك التواني، عن رؤيةٍ خاصةٍ لعبد الحميد، تجاه الفنان ونتاجه الابداعي، حيث يُفضّل الكيف على الكم. ولا يؤخذ بالسرعة، تبعاً لأسلوبه الفني. فإنتاج أعماله يحتاج إلى زمن مديد، وأناة ودقة، ومكابدة، ومعاناة، وذلك ما يتّضح ويبين في فنه، وما يفصح عنه الفنان، في أحاديثه ونقاشاته ومتابعاته في حضور النشاط التشكيلي الغزير القائم على قدم وساق، والذي يغلب كمه على كيفه كما يرى.

توالت مشاهداتي لأعمال عبد الحميد، لكنني لم أكوّن مفاهيماً وقيماً جمالية متواشجة عن فنه على وجه العموم، عسى أن تتاح لي فرصة معرضه، حتى أقول الذي في داخلي عنه، بعد معاينة المعرض، ومن خلال حماسه، أتوخّى أن يكون في المستوى التشكيلي والجمالي الذي نأمل معه فيه...

وعبد الحميد بعلبكي فنان الصمّت والظلال والظنون. وكأنك بناء على ما تقدّم تستطيع أن تحلمه أكثر من أن تعاينه وتلتمسه، رغم حضوره التشكيلي الواقعي، وكأنه منطوٍ على عوالم فنية غنية متنوعة، تطلُّ على سيمائه، وتنداح من خلال عينيه، وهو يتحدث ، أو يبتسم، أو يقول قولاً مهجوراً، أو يعلق على اتجاه فني ما، وهو كثابت صامد في موقفه وموقعه، والعالم يتغير من حوله. ويعترض على كل شيء، وكأن ديدنه الإعتراض، ولا يذكرني بدون كيشوت، ولا هو يحارب طواحين الفن، بل إنه منغمس فيه، ثمل منه، مُورّق وقلق، ويعاني ليل نهار..

هل مرّ الزمن الذي يمكن أن يستدرك ويتدارك فيه فنان مثقف كعبد الحميد فنه، أم أنه يرى في العمر متسعاً للوصول إلى مراميه وغاياته، وكأنه يبدأ دائماً من جديد، ويعمل، بل لنقل أنه يكدح في فنه كي يصل الى ما يرتئيه ويرغبه، وربما كان ذلك كذلك. لكنها الأيام أيضاً، تعتادك على أن تجد الأحياء موتى، فيما زمن الفنان في الواقع واللاواقع، وزمنه في الحلم. والفنانون حالمون هائمون على وجوههم، وهو منهم، حبذا لو تتكشّف لنا بعض أحلامه في أعماله التي سنراها قريباً، حتى نكون على بيّنةٍ من الفنان وبيّنةٍ مما نقول فيه وسنقول..!

إذن أمرٌ جلل أن يكون هناك معرض فردي، وجليل وجميل أن يكون لعبد الحميد بالذات، حتى لا تُسئمنا الكتابة والحكايا، تأتي اللوحات، لتعوضنا فقر تعبيرنا فيما أسلفنا عن الفنان وأحواله، وكنت وما زلت متردّداً في الكتابة الآن، غير أنني أفرجت عن كلماتي، وآثرت طرحها في مطارح تكون لها أصداؤها، فيما لو توافقت وتواقعت مع أعمال الفنان. على أنني لم أكن أحرث الصمت، حين هممت بالتقوّل والتأول، فيما كنت غافلاً عنه، على أن أعود إلى استجلائه في منعطف الشهر القادم، وفي ماضي الأيام الآتية.

هكذا بورتريه الفنان عبد الحميد بعلبكي، الذي حاولتُ جمعه وتقديمه على استحياء ، وربما ببعض الشَّغَف التشكيلي الذي ينتابني بين حين وآخر ...

زهير غانم

بيروت ٩ / ٢ / ١٩٩٨

يؤمن بألف لغة ...

عائدة سلوم

نعرفه أستاذاً عريقاً ...

ونراه فنّاناً ملتصقاً بذاته وبيئته ...

نخاله شاعراً مخضرماً، فإذا هو صحافي متوجّع، متهكّم، وإذا هو محامٍ عنيد، يعتبر كل شخصٍ قضيّته، صديقاً كان أم عدواً، يدافع عنه بمقدار ما يدافع عن نفسه، إن لم يكن أكثر!

إذا آمن بشيء تراه ينقطع إليه، ويتفرّغ له، مستنفراً ذهنه وأعصابه، كأن لا هاجس له سواه في حياته...

يسكنه عشرات الرجال. نهم لكل شيء في الحياة. تمتدّ جذوره عميقاً في الأرض، ويناطح رأسه عالم الخيال!

يمتلك روح المواجهة والتحدّي ...

هو يريد أن يُصلح العالم لكنه ينسى أن مدينة أفلاطون غرقت في التاريخ !

لا يعجبه العَجَب ولا الصيام في رجب...

يؤمن بألف لغة، لكن أسلوبه يظلُّ واحداً. يعطي بدون حسابات.

هو دائماً على صواب. مؤمن متزمّت برأيه يردّد دائماً:

وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعوّل في الدنيا على أحدِ

يُقنعك دائماً بوجهة نظره وإن على مضضٍ منك !

يقتله الإهتمام بجمع الوثائق والاشياء القديمة... تقريباً كل الأشياء، وكأنه يجب أن لا يزول شيء في هذا العالم ...

كما لو كان يخالف منطق الهدم في الطبيعة . كأنه هو صانع العالم ويريد الحفاظ عليه.

حريصٌ هو على النظام الطبيعي الذي يُسيِّر الكون رغم أنه سيستمرُّ معه أو بدونه.

يبدو "البعلبكي" وكأنه غير مؤمن أبداً. مقتنع بفناء العالم ، وبلا جدوى الحياة، وبلا طائل هذه الرحلة.

لكنك تراه لشدّة تعلُّقه بالحياة والأشياء يصل إلى نقيض ذلك.

حبُّه للحياة وخوفه من نهايتها يُسبِّب له صدمةً فينتابه شعور حادٍّ بالعَدَمية، تتحوّل معه الحياة إلى قضية زائلة. وهو يحاول دائماً، من داخل وعيه أو خارجه، كسر هذا الشعور بكثرة الاهتمامات... فهو لا يستطيع أن يمارس شعوره بالعدمية كفلسفة، كترجمة وثيقة للحياة، لذا يرتمي في تنوُّع الحالات، وكثرة القضايا، ليلبّي عصبه، ويعوّض ذلك الإنكسار! يبدو كرجلٍ في قلب الكارثة يحاول أن يُغيِّب ذهنه عن الشعور فيها باهتمامه بأشياء تفصيلية. لكن، ورغم كل ذلك، فغريبٌ كم هي هذه الأشياء حضارية !! من جمع المخطوطات واللوحات، والكتب القديمة النادرة، إلى جمع الأثريات، والطوابع، والعملات... هذا عدا عن اهتماماته الأساسية بالرَّسم، والشعر، والرِّواية، والتصوير الفوتوغرافي... الخ!

غير أن مأساته السعيدة أنه لا يُكمل أشياء كثيرة. حتى لوحته أحياناً لا يكملها !!! وفي النهاية يظلُّ فريسة هروبه من المأزق ووقوعه فيه ...

يفطن إلى العدمية ويحاول كسرها. يقع فيها ويهرب منها، ولكن إلى أين ؟!

جذع - باستيل اسود - ٢١ × ٢٧ سم

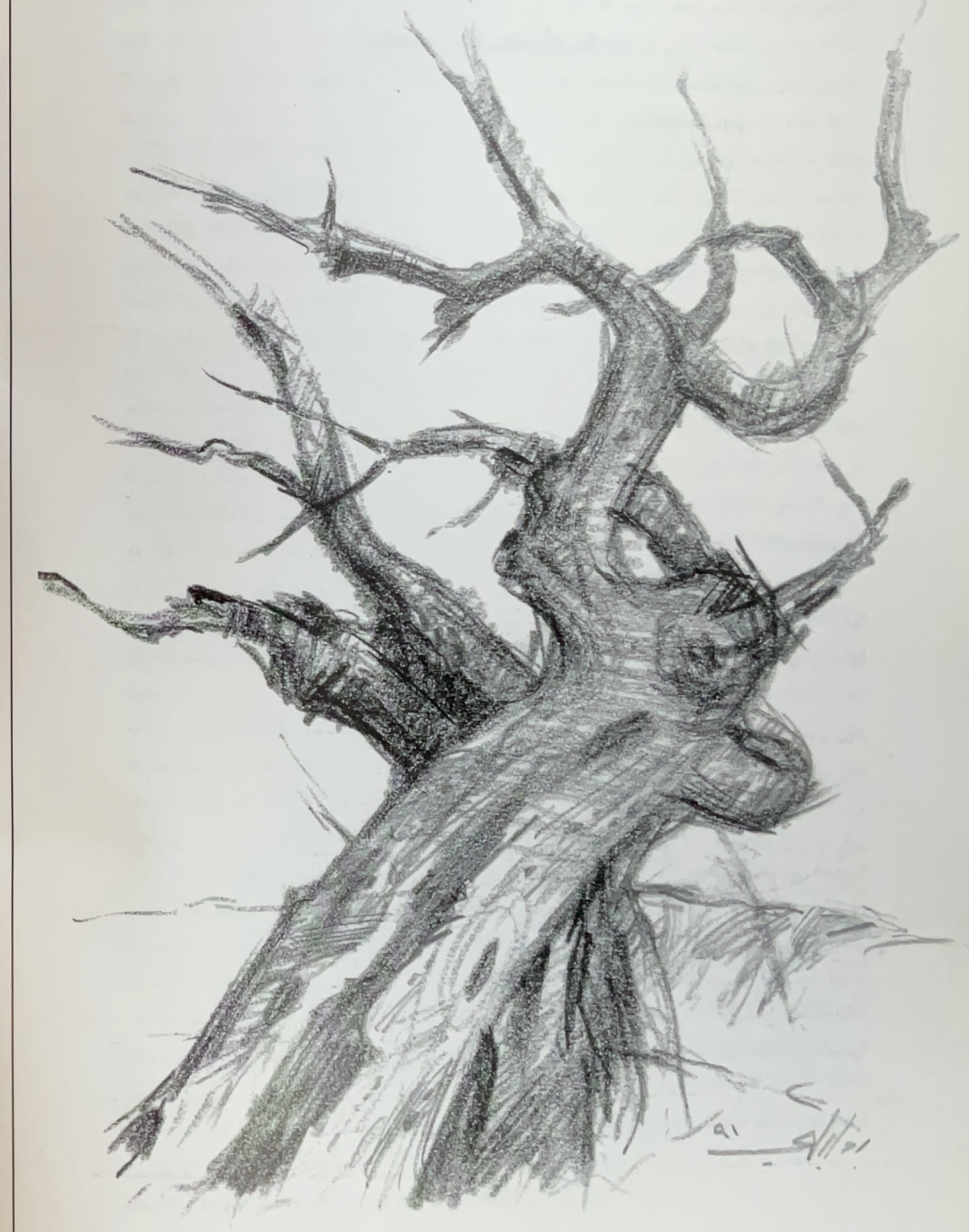

حبر على الكورنيش
كاتب هذه السطور أخشمجي!

بريشة عبد الحميد بعلبكي.

عندما أمضي، شارعاً في نزهتي اليومية، طاوياً الكورنيش الذي يمتد من أوتيل قدموس الى مقهى عروس البحر، أستشعر أن زغب الفرح يطفر من جسمي، فأنا على الموعد وفيّ، وفي هذا التحرك المسائي بين السابعة والتاسعة أرتجل المشي. والكثيرون من مشاة الله يقصدون هذا الخط المستدير المعكوف استدارة سيف الامام عليّ، وهو ذو الفقار، وذلك في البكور، يحيون الشمس طالعةً من خدرها أو متمطية في الأفق لم يرتفع قرصها الذهبي بعد الا قليلا. وفي التعابير الاصطلاحية التي ورثناها عن الأتراك أن من يقوم بالخدمة في سلك الامن الداخلي نهاراً فهو صبحجي، ومن يقوم بها ليلا فهو أخشمجي. وكاتب هذه السطور أخشمجيّ في الغالب من أموره، الف السهر منذ نعومته، ومنذ طرّ له شارب، فهو نديم الليل اذا سجا "ما ودّعك ربك وما قلا"، كما في الآية القرآنية، أي ما تركك ولا أبغضك. ولهذا عندما يكون المشاة يشقون دربهم في الصباح البليل، يكون صاحبنا معطياً أذنه للراديو، وهو لا يزال في الفراش، ليطمئن الى أن الدنيا ما برحت تدور، وليستعلم عن آخر فرمان أصدره الرئيس بوش، وليتعرف ما استجد من خروب أهلية فوق ظهر هذا الكوكب، فلسنا وحدنا من خاض هذه التجربة المريرة، على أننا، والمفاخرة في طبعنا، ربما كنا أكثر أوريجنالية في تعاطيها.

نعود الى حديث المشي الذي أقوم به يومياً، فلست في حاجة الى إخبار القارىء أنه، في رأي الأطباء، خير ما ينشط عمل الجسم، وهو رياضة مجانية، اذا ساغ القول، لا تحتاج الى نواد أرستقراطية ليس في مقدورنا ولوجها لأن الديموقراطية تعم الرأس والجيب. وليس مشيُنا مشي الخُبالى، تتنزه الواحدة منهن وهي تنقل خطواً مدروساً، وتحمل بطناً علا وتبختر، والى جانبها زوجها تتأبط ذراعه وتلوح على محياه أمارات الزهو والانشراح، فهو عضو منتج، وأمة محمد سيرفدها، إن شاء المولى، بطابور أو كتيبة. وهذا الضرب من المشي المتثاقل المتباطىء يلجأ اليه أيضاً من اضطربت الغدد في كيانه، فكُسِّر لحماً الكورنيش يؤدي هذه المهمة النشطة. على أن هناك صنفاً آخر من العباد المسرعين في مشيهم، وهذا الصنف اكتنز باللحم، فانطلق هنا وهناك، وبخال أن المشي بهمة يمحو ما زاد وفاض. هيهات، فالأمر، ربما، محتاج الى هذا الحزام المطاطي الذي شاهدناه قديماً على الشاشة، والذي ينور على قفا الجسم بسرعة فينال ما في وسعه أن يخفف. والشفط كان حديث أهلنا، لوقت قريب، في بعض جنوب الوطن، إذ ضل شفّاط الرمل الطريق، على ما يبدو، وسما، وجل من لا يسهو، فاذا به يقف على الخط مباشرة، بدل أن يدخل الى عمق البحر، كما يقضي القانون والرخصة المعطاة، واذا به يقوم بعملية حلاقة لشطنا النهبي هناك، فيعريه، شيئاً فشيئاً، من رمله الذهري. وعندما وقف المحاضر الجامعي الضليع، في منتدى التضامن بمدينة صور، ينبّه ويحذر ويقرع ناقوس الإنذار أن هذا الرمل الساحلي المشفوط يحتاج، في أقل تعديل، الى الف سنة لتعوّض البلدة رملها المهدور، لم يرق هذا الرأي العلمي لبعض ذوي العضلات، فسفّهوا المحاضر، ربما لأن حساباتهم تقول بثماني مائة سنة لا الف، وانفتلوا يعبّرون عن خواطرهم الفكرية بالكراسي المرفوعة والمتطايرة. وحمداً لله أنها كانت كراسي بلاستيكية لا خشبية، وربما كان هذا احتياطاً من النادي الثقافي لصروف الزمن ورسائله، فنال المحاضر القادم من بيروت نصيبه من البلاستيك الرؤوف. وحمى الله الوطن من الشفط والشفاط والشافطين.

نعود الى كورنيشنا البيروتي، وليس الحديث عن قطعة ساحلية في أقصى الجنوب خروجاً عن الموضوع، لأنها امتداد لشطنا وهمنا المشترك. وفوق هذا الكورنيش تدرج العربات في كل اتجاه، حاملة المآكل والمكسّرات، وينادي الباعة، كعك بتمر، قلب اللوز يا ترمس. وهناك الفول المسلوق، ترش عليه البهارات، وتصحبه ضطائر الحامض المقشر المقطع، وقد شكت نكاشة في إحدى الفولات توسلا بها للأكل. وهناك هذا الداخون الطويل الذي يعلو بعض العربات، وينتشر منه دخان وزوجته تنظر اليه تارة، وهو منتفخ الصدر متقعر الخدين، وتلقي طوراً عينيها الحائرتين على بناتها المراهقات اللواتي ينتظرن العريس الموعود، ولكنه لا يأتي هذه الأيام مسرعاً، وإن المال قليل في جيوب المواطنين، والأسعار نار، والأمل مرهون بالشباب المهاجرين. وهذه أم، عبلة الجسم، أسندت ظهرها الى كرسي من الألمنيوم من النوع الذي يُطوى ويفتح، وأرخت رد فيها الى حباله المطاطية، وهي تلقم طفلها مصاصة حليب بدل أن ترضعه، وذلك كما توصي النشرات الصحية التي تدعو الأمهات الى الإرضاع من الثدي، لما لهذا الحليب الطبيعي، المعقم سلفاً - سبحان بارىء الكون ومهندس العباد - من فوائد أهمها أنه يحوي الصمغ المقوّي للعظام، ولا يحوبه أي حليب بودرة، ولا حتى هذا الذي يقول الإعلان فيه: حبيبتي ماما، الولاد شتاقولك! ربما لم تعمل هذه الأم على الكورنيش بنصائح حملة الإرضاع من الثدي لأن زوجها رفض المراجعة، ولأنها حرصت على أن تكون بهية في عين الزوج، تحمل نهدين راسخين كقمم جبالنا، يهتزان بعنفوان إن مشت، ويحكيان إن وقفت، ويقولان للعيون المختلسة: ظلوا بأماكنكم وموتوا بحسرتكم!

وطيارة الورق ما زالت تعيش، يمد لها ولد الخيط، وأبوه الى جنبه يوجهه، فتتعالى في الهواء، وتلمع ألوانها الزاهية، وتذهب بعيداً فوق موج البحر. أيا عهد الولدنة، أين أنت؟ أيام طيارات الورق، واللهو بالكلل ذات الألوان البراقة، وتعلم قيادة المراجة، والعيش بحياة نصفها لعب ونصفها حلم. كبرنا، وبات منظر كهذا يحرك بحيرة الذكريات الراكدة، ويجعلنا نتنهد ونزفر. ما فات بات، على رأي قس، خطيب الجاهلية، وجنبنا الله من خفايا ما هو آت. لندع الأه والإيه جانباً، ولنلتفت الى هذين المتشابهين يضعان نظرة حانية في كاميرا الصور السوداء والزرقاء والتي تتدلى من رقبته، ويلتقطان صورة تذكارية فورية، والبحر من ورائهما صفحة زيت رائقة، والسماء في زرقة أحلام العمر، والشاب يضع ساعده حول كتف محبوبته، وهي تستسلم راضية وتفتر الجمر، عندما تناهى الى طبلة أذني اليمنى صوت شخص يقول شاكياً لصديقه بتأفف ونقمة: قللتلها، ألف مرة، لمرة عمي، حاجي تكركيلي! ورواد هذا الكورنيش اعتمنوا العربية والمستهم، على تباين في اللهجات التي ترشنك الى مسالقطم. على ان الحال لا يخلو أحياناً من رجل طويل القامة عريض الجسم يمشي ثابت القدم، والى جانبه تهرول زوجته القصيرة ارتدت بنطلوناً شورت، وهي لا تكف عن الحديث وعن ليّ رقبتها لتنظر الى وجه زوجها العالي، وتتطاير من فمها المفردات: Oui... non... pas possible...

وعلى الكورنيش، وخاصة من جهته الشمالية، وعلى مقربة من مما كان يعرف قبل الحرب الأهلية ببيت المحترف وصار اليوم خراباً ومكباً للنفايات، تلتقي بأناس يمارسون نرساً في الصبر، أنهم الصيادون. يلقمون الصنارة بما تيسّر في سلالهم من طعوم، ويرتدون الى الخلف قليلا ويلقون بها في اليم، ثم ينتظرون وينتظرون، حتى اذا ما تحرك شيء على امتداد الخيط أو خالطهم هذا الشعور الداخلي بأن سمكة علقت، أداروا البكرة بسرعة وسمع أزيزها الذي يبشر بالسمك الذي سيغدو مطلباً شهياً عند العشاء. وأنواع الصيد صارت حديثة متقنة، ولم يعد الموضوع مقصوراً على قصبة جوفاء بالسة كتلك التي تعثر عليها في قصص صيادنا الراحل محمد عيتاني. وتلقى من يمارس الصيد هاوىء الطبع، يعالج أموره بروية، وتترك معه معنى الصبر الجميل. ويمر الناس بهؤلاء الصيادين يتأملونهم، ويلقون برهة ينظرون الى صنيعهم، وهم عن الناس لاهون، منصرفون الى هوايتهم، يعنون النفس بصيد وافر ولا يملون الانتظار. ويعجب المارة من هنوئهم، ويمضون الى شؤون أخر، لأن الصيد صنيعة تحتاج الى هواة وأعزة باردة. والثلوج يفوز سلة فارغة، والمتأني يحتال على السمك ويوقعه في المطب الجاهز، فيقبل على الطعم ويعلق بطرف الصنارة، من غير أن يعتبر سلالين أفراخ السمك التي علقت قبله ولا ملامة

في بيتنا... هِتْرِلْ!

والد الفنان بعلبكي - ١٩٦٤

في مَطلع الأربعينات، حين كانت ألمانيا النّازيّة بقيادة هتلر تحقّق انتصاراتها العسكريّة المدويّة، في أرجاء أوروبا، وأماكن أخرى من العالم، كان أبي من أشدّ المتحمّسين لألمانيا وهتلر، إنسجاماً مع نزعة القوّة التي كان يؤمن بها، ويحاول أن يمارسها في نطاق علاقاته الشخصيّة، حين يُواجَه بتحدّ من بعضهم، أو يُعاند. وكانت أمي أقرب ضحايا هذه النزعة إليه، لبعض عناد فيها، كان يبالغ هو في كسره وترويضه. لكن ميله الى الإقتداء بهتلر لم يصل به الى أبعد من اقتناء شبريّةٍ شركسيّةٍ يُهوّل بها تهويلاً في بعض "مشاكله"، وخيزرانةٍ، غالباً ما كان يستعملُها في تأديب سائمته، أو عشيرته الأقربين. والغريب أنه برغم هذه النزعة لم يقتنِ مَسدّساً أو أي سلاح حربيٍ اخر، رغم أنه تعاطى أحياناً تجارة السّلاح الخفيف والذّخيرة.

كان أبي في هذه الفترة شاباً فتيّاً، لم يتعدّ الثلاثين من عمره، أميل الى النّحول منه الى الإمتلاء. لكنه كان متين البنية، عصبيّاً، يُشعل رأسه العنفوان. وكان معروفاً بتطرّفه في تصريف انفعالاته، وردّات فعله، الى حدّ النّزق، والتهوّر ... لا يتهيّب في خصمه، إذا أُكره على منازلته او استعدائه، بأساً، أو قوة، أو كثرة عدد. فكان يُلقي بنفسه في الشّجار أو الصّراع، دون تحسُّب

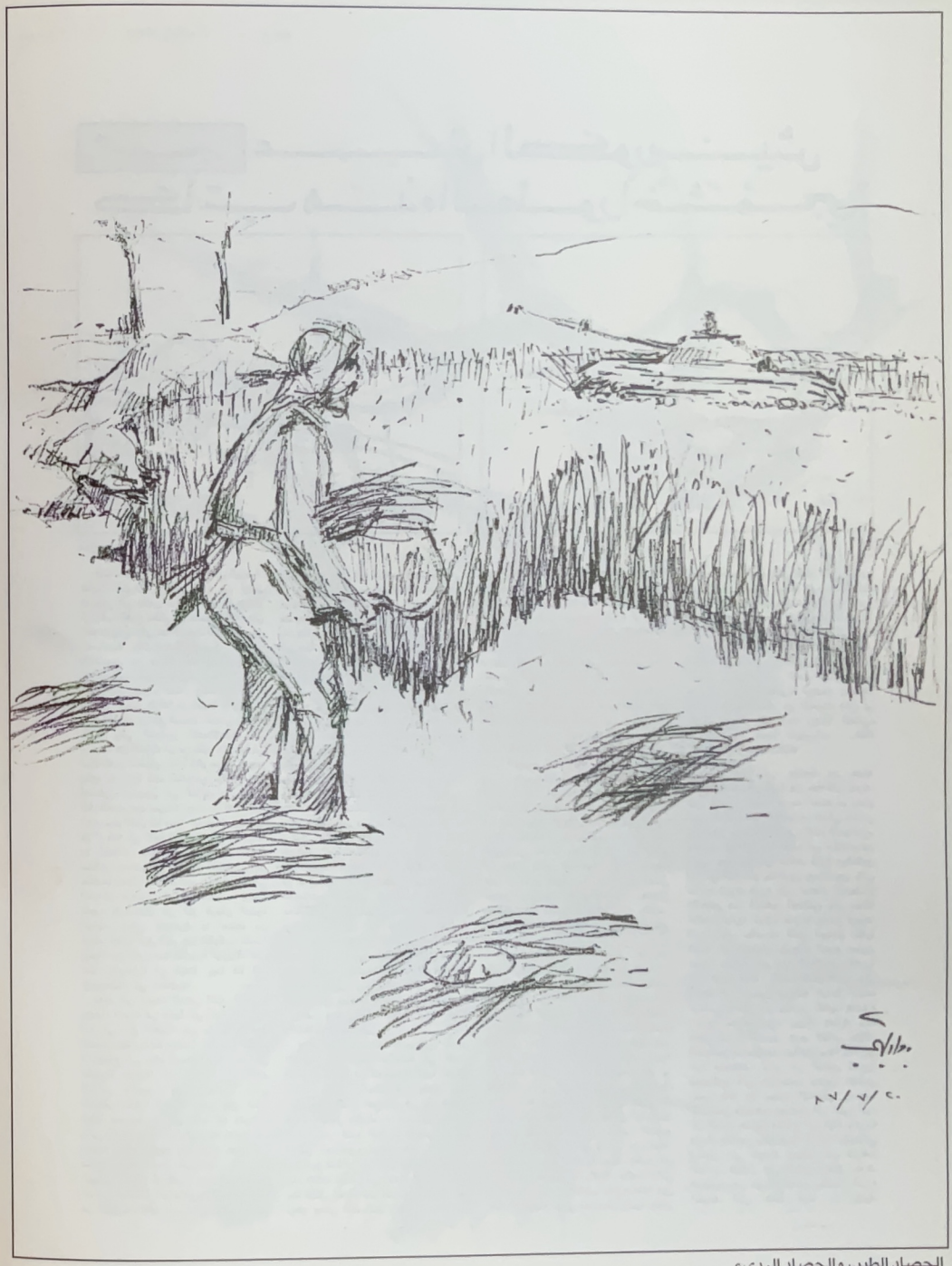

الحصاد الطيب والحصاد الرديء
قلم رصاص ٢١ × ٢٦ سم

أو حفظٍ لخطِّ الرَّجعة. ومنذ سنّ الطّفولة كان أبي يردّد على مسامعنا، أنا وإخوتي، في مجال تعبئته لنا:

- " مش المهمّ كُبر الجسم، المهمّ الانسان يكون عنده قلب مثل الصّخر... ما فيه اكبر من الجمل، والجمل بيجرّه ولد" !

وكان يختصر لنا تجربته وأسلوبه في الصّراع بقوله:

- " الضربة لمن سبق ... اشرق عين خصمك قبل ما يشرق عينك"

وكأنه كان يترجم بعفوية نهج ألمانيا الهتلريّة في شنّ الحرب الوقائيّة الصّاعقة !

وقد أورثته نزعة القوة هذه نفوراً ضمنيّاً منه لدى الآخرين، كان يجد تعبيراً له في تحاشيهم مخالطتِه أو التّعامل معه ...

كان أبي معجباً بهتلر أشد الاعجاب، لما كان يراه فيه من صفات القوّة، والإعتداد، وروح الاقتحام، مما يجد له صدىً في تكوينه الشّخصي. وحين شاعَت موضة حفّ الشاربين على النّمط الهتلري في بعض الأوساط السُّورية واللبنانية والفلسطينية، كان أبي واحداً من أوائل الآخذين بهذا النّمط، الذي كان يُطلق عليه من باب التّشنيع " نُصّ نَعل". ولم يتخلّ عنه الاّ في أوائل السّتّينات، بعد أن هَرِمَت صورةُ "الفوهرر" في أذهان المعجبين به، وأزدهَى العالم الثالث بالعديد من كبار القادة المناهضين للاستعمار، أمثال عبد الناصر، وبيرون، وتيتو، ونهرو، وسوكارنو ... فمال الى الاخذ بنمط معدّل عن شاربي عبد النّاصر.

ولم يكن لأبي من مأخذٍ على هتلر، سوى أنه " كبَّر لقمته" حين استعدى عليه الدنيا. بمحاربته أو غزوه " مئة دولة بوقت واحد" بينها روسيا، وبريطانيا العظمى، وفرنسا، واميركا... وكأنه " حاسيها دّبان ". والكثرة تغلب الشجاعة !

وكان من المعجبين في الوقت ذاته برومل، ثعلب الصّحراء، ويَتَحَسَّر على أنه لم يربح معركة "العلمين"، معتبراً أن دبّاباته قد عُبِّأت خزّاناتها بالماء بدلاً من البنزين بفعل خيانة، لم يكن ينسبها الى جهةٍ محدّدة، لأنه كان ينزّه الضُّباطَ والجنودَ الالمان عن اقترافها. ولولا هذه الخيانة لكان من المؤكّد أن يحتلّ مصر، وفلسطين، ضمن خطةٍ بعيدة المدى للإتّصال بالجيوش الالمانية في رومانيا الغنيّة بالبترول...

كان أبي يكره الجُبناء، ويحترم الاقوياء. ويعتبر رأس الخِسّة في الممالأة والتّملُّق. وينجده في هذه الطبيعة اعتداد ملحوظ بالنفس، يصوّر له امكانيّة الاستغناء عن الآخرين، والعيش بدونهم، اذا لم يجد في ظهرانيهم الصّراحة، وعزّة النّفس...

وفي اعتقادي أن مردّ هذا النّمط من التفكير والسّلوك لديه مرتبط بظروف نشأته البيتيّة المبكّرة.

ماتت أمه وهو لم يكد يتجاوز سن الفطام. وكان أخوه الأكبر قد سافر الى الأرجنتين في حدود سنة ١٩١٠، وهو ما يزال رضيعاً في المهد، وامتدّت غربته لأكثر من خمسين سنة. ثم لم يلبث أن مات شقيق له اثناء الحرب العظمى، اسمه "عبد المجيد" . وبعد أقلّ من سنتين لحقت به أخت له إسمها "وردة"، كان يَكنُّ لها حَباً وتقديراً عظيمين لشدة ما كانت برّةً به، عطوفةً عليه. وكان كلما تذكّرها، وحدّثنا عن مآثرها تجاهه، يكتئب وتطفح عيناه بالدّموع. بهذا لم يعد له من ملجأ سوى أبيه، وهو رجل مفرط في حساسيّته تجاه الآخرين، جبروتيّ، متشدّد، يميل الى الوحدة والانكفاء عن النّاس، ويغلب عليه حدّةُ الطّبع !

وقد انقطع إليه أبوه ، بعد فقده أفراد عائلته، الواحد تلوَ الآخر، فاختصّه بكل عطفه واهتمامه، وأفرَط في مسايرته على ما يُحبُّ ويهوى. وغرس فيه الكثيرَ من طبائعه، وميوله، وآرائه. فنشأ نشأة الولد الوحيد، المُدلّ، المعانِد، الذي تسوقه فطرتُه الى الاعتماد على نفسه، والاحتماء بقوته الشّخصيّة، مما يعترضه من مصاعبَ وخصوم، في دروب الحياة الشائكة...

كان انتصار هتلر أوانكساره، بحسب رأيه، (وأنا اعتقد بصواب هذا الراي)، يعني انتصاراً للعرب أوانكساراً لهم، خصوصاً في ما يتّصل بصراعهم مع اليهود. وكان أبي يتذكّر دائماً قولاً حصيفاً لبعض من كان يتعامل معهم من اليهود، في فترة الحرب، قبل أن ترجح كفة الحلفاء على المحور، ويؤدّيه لفظاً وحركةً بالصّيغة التالية:

- " يا خبيبي ... إذا هتلر بيربح خَرب . عرب بيركب على اليهود هيك... "

مصوراً حركة الرّكوب بإدخال كفّه الأيسر، القائم على سكينه، بكفّه الأيمن، بين السّبّابة والوسطى، بحيث تبدو كما لو كانت الكف اليمنى تركب اليسرى.

- " واذا هتلر بيخسر خرب ... يهود بيركب عرب هيك ... "

معيداً تمثيل الحركة ذاتها!

والمُفارقة المستغرَبة أن أبي كان، طيلةَ سنوات الحرب، يتعاطى البيع والشراء مع اليهود، أعداء هتلر الألدّاء، والمضمرين ركوبَ العرب اذا خسر هتلر الحرب. لكن اعجابه الشديد بهتلر لم يكن يمنعه من الأعجاب بنظاميّة الانكليز، ودقّتهم، أو بأمانة اليهود، رغم أنه كان يكره فيهم المكر، ويعتبره من الصفات الغير اللائقة بالرجال.

وكثيراً ما كان يَسخَرُ من الفرنسيِّين الذين " كانوا عَمْ يرقصوا دانس" حين كان هتلر يُعدُّ الجيوشَ، ويشغّل مصانع الأسلحة ليغزو بلادهم.

حتى مطلع السِّتِّينات كان أبي ما يزال على اعتقادٍ قديمٍ، راسخٍ لديه، منذ نهاية الحرب، بأن هتلر ما يزال حيّاً في مخبأ سرّيٍ. لكنه بدأ يردّد في تلك الفترة أنه " حتى لو كان بعدو طيِّب، بيكون صار ختيار، وما عاد يطلع منّه شي...."

والعناد الذي كان يُميِّز طبع أبي كان يجد له ترجمةً في استعصاء بعض الأسماء على لسانه، ومن جملتها قولُه "هترل" بدلاً من هتلر. وقد أخذ لسانه على هذا اللفظ، واقتدينا به في البيت، حتى تعلّمنا في كتاب التاريخ المدرسي الاسم بلفظة السَّليم. وقد حاولنا جاهدين، المرة بعد المرة، أن نحمله على تعلّم هذا اللفظ. والحقيقة أنه كان يحاول، لكن بدون جدوى. وفي نهاية المطاف كان يُبدي ضيقه قائلاً:

- " الاَ على القاموس" !

ثم يستطرد مردّداً:

- " هِتْ ... رِل. هِتْ... رِل" !

ذاتَ يومٍ، وكانت الحرب قد آلت الى خَتام، رجع أبي إلى البيت كاسفاً، مكتئباً، فلما استقَربه المقام نظرت أمي اليه وقالت :

- " خير ان شا الله ... مبيّن عليك زَعلان . !

قال بأسى:

- " انكسر هترل..."

كانت أمي تعجن. للوهلة الأولى رفعت يديها من العجين، كما لو كانت تتهيأ لحالة ذعر. لكنها لم تلبث ان استأنفت عملها قائلة باستخفاف:

- " انكسر ينكسر ... انت شوهامّك " ؟!

قال أبي بحدة، وكأنه يرثي نفسه:

- " اسكتي يا .. اسكتي. يا اسافا عَ الرجال اللي مثله تنكسر" !

ولسنوات بعيدة ظل ابي يرددّ هذا القول كلما تذكر هتلر.

ربيع آخر
زيتية ـ ٨٠×١٠٠ سم

منظر طبيعي ـ زيتية ـ ٦٠×٨٠ سم

تفصيلان من جدارية «الحطّاب» ـ ٣٢٠ × ١٩٠ سم

بقايا شجرة ـ زيت على قماش

منظر من دير قوبل ـ زيت على قماش ـ ٦٠ × ٨٠ سم

أقنعة ومنحوتات...

بعلبكي مع قناعين من صنعه: أحدهما لغولدا مائير والآخر لنيكسون. والقناعان هذان ، إضافة إلى قناع ثالث لموشي دايان لم يظهر في الصورة، استعملها المخرج المسرحي جلال خوري في مسرحيته الشهيرة: "جحا في القرى الأمامية" التي عُرضت لفترة طويلة في بيروت ومناطق لبنانية أخرى .

وتظهر ضخامة القناعين بالمقارنة مع حجم الشخصين في الصورة ... مع أن وزن الواحد منهما لم يتعدَّ الكيلوغرامين كثيراً !

زاوية من الطبيعة ـ زيتية ـ ٦٠ × ٨٠ سم

تفصيل من اللوحة أعلاه

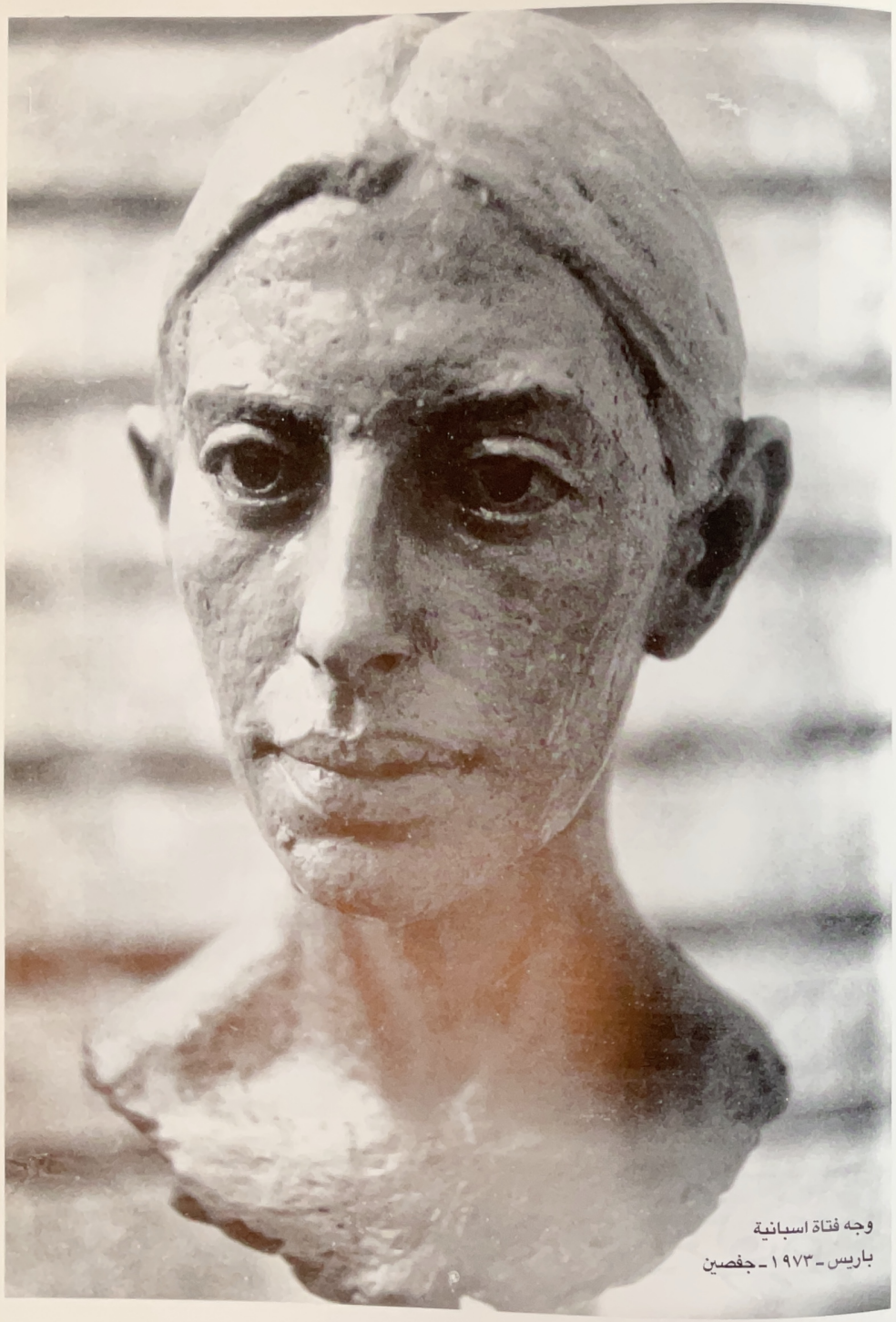

وجه فتاة اسبانية
باريس - ١٩٧٣ - جفصين

المخرج المسرحي جان شمعون. ١٩٧٣

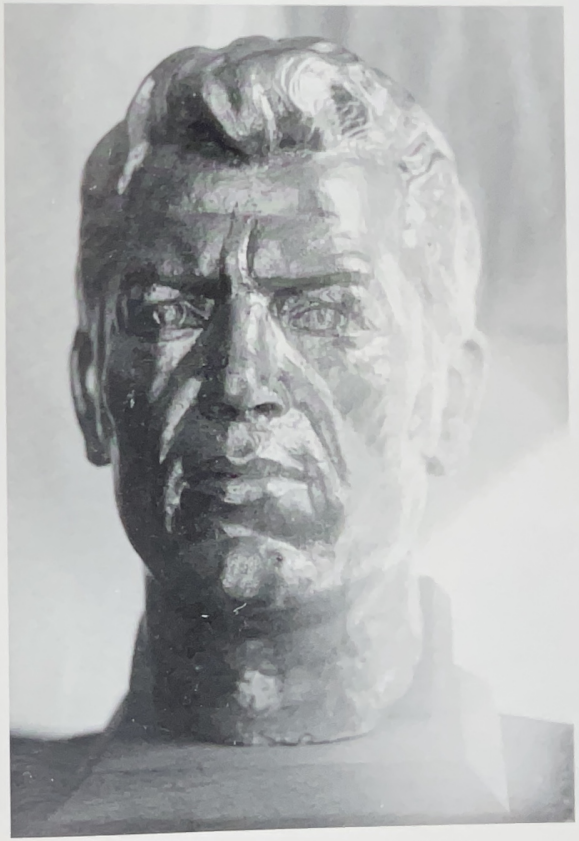

الفنان فوزي بعلبكي. ١٩٧٥

لاتشبث بالأعلى

... وصور فوتوغرافية

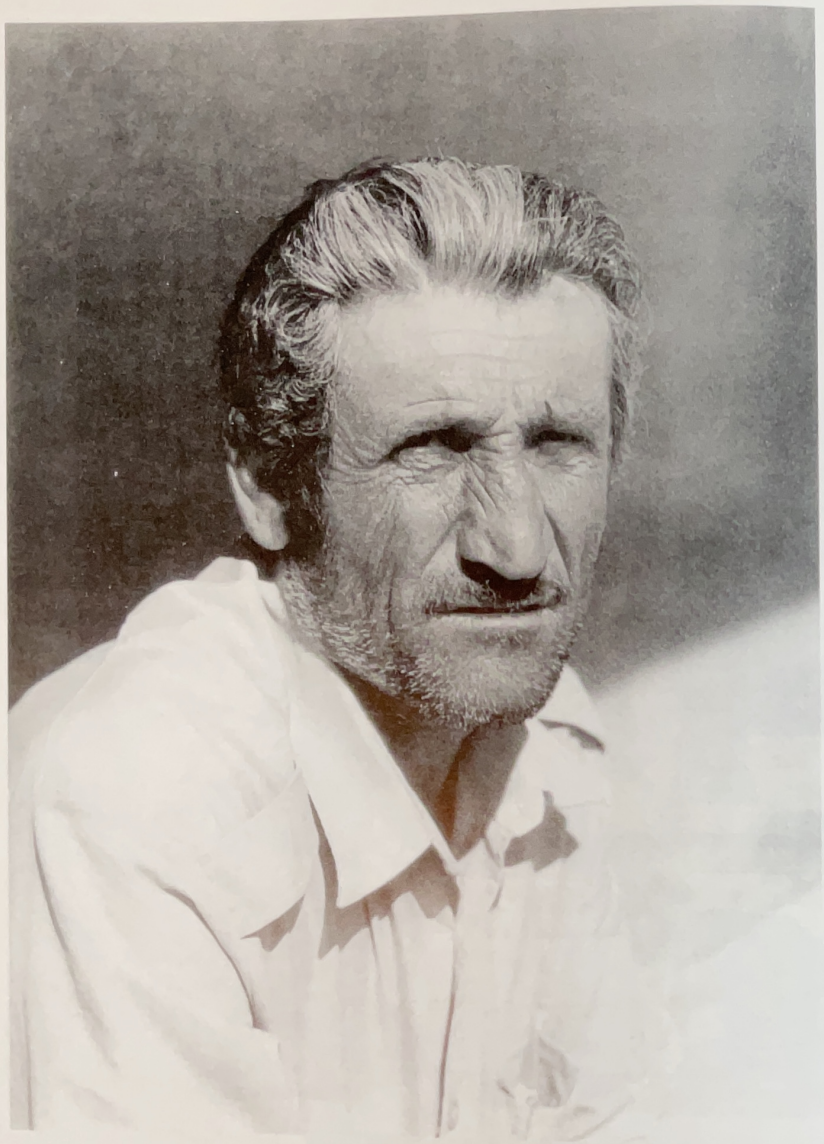

وجه من العديسة ...

الصور الفوتوغرافية المنشورة في الصفحات: (٥،٦،٧،١٣،٢٠،٢١،٢٢،٤٤،٤٥،٤٦،٤٧،٤٨،٤٩،٥٥،٥٧)
ماخوذة بكاميرا الفنان بعلبكي